480

HARLEQUIN

روايات أحلام

أسيرته مدى الحياة

شانتيل شاو

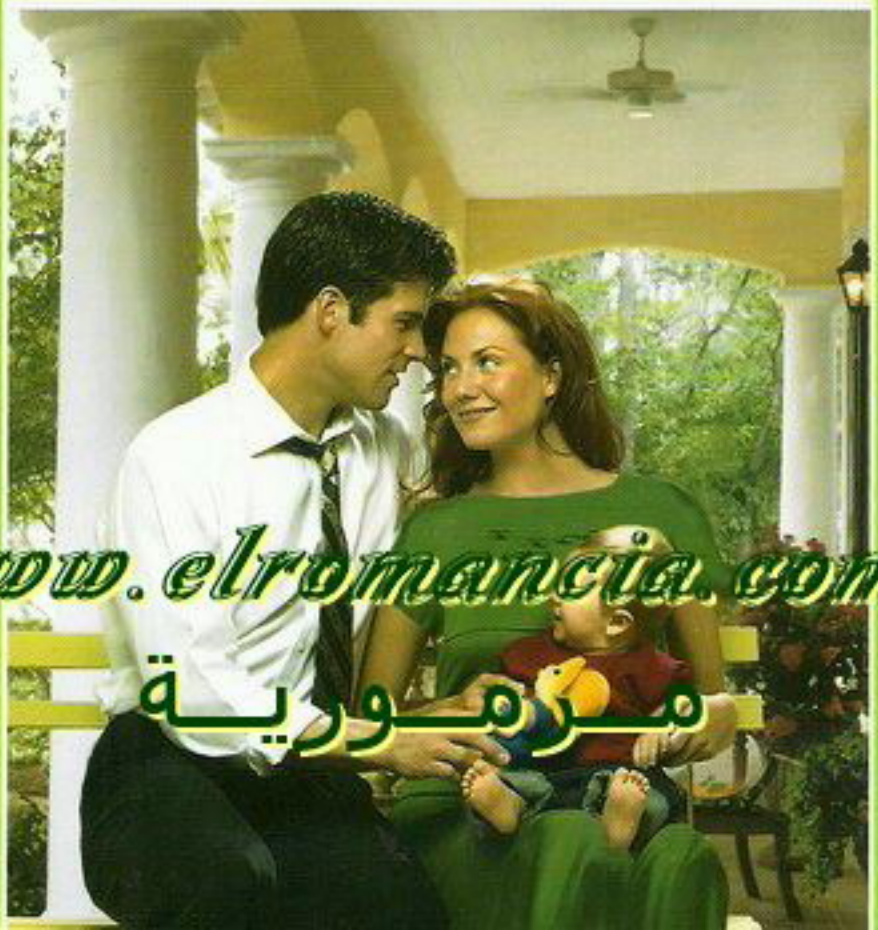

www.elromancia.com
مرمورية

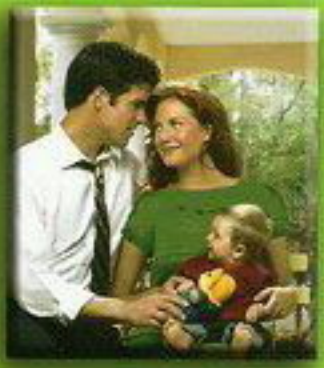

أسيرته مدى الحياة

إنه يريد استرجاعها لصالح طفلهما!

أجبرت أميلي فايلون على ترك زوجها منذ عام. كان الشغف الموجود بينهما صاعقاً. لكنها لم تعد قادرة على البقاء مع رجل لا يحبها. خصوصاً حين اكتشف أنها حامل.

اما الآن فقد عاد لوك ليطالب برؤية ابنه. ستعود أميلي إلى قصره حتى تلعب دور الأم و الزوجة.

إنها محتجزة في القصر. وعليها أن تتأقلم مع وجودها إلى جانب زوجها الوسيم. بالرغم من تصاعد التوتر و في نفس الوقت الانجذاب بينهما. إلا أن شكوكها حيال سكرتيرته الخاصة و حيال ماضيه تزداد يوما بعد يوم. على أميلي أن تكتشف سر لوك الحقيقي. إن أرادت أن تعرف الحقيقة فعلاً. و تستعيد ثقته لأجل نفسها و لأجل ابنها.

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: «مال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Books S.A

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Books S.A

العلامة التجارية Harlequin وشعار Joey هما ملك شركة Harlequin Books S.A
وهما مستعملان هنا بترخيص منها

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
The Frenchman's captive wife
First Puplished in Great Britain 2006
Harlequin Mills & Boon Limited
©Chantelle Shaw 2006
Translation © Dar El-Farasha - 2010
ISBN 978 - 9953 - 15 - 515-9

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950 - 453115 -1-0961 - بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

شانتل شاو

تعيش في كنت، في منزل يبعد ٥ دقائق عن الشاطىء، لذا ابتكرت الكثير من شخصيات كتبها وهي تتنزه على الشاطىء. كانت شانتيل قارئة نهمة منذ صغرها، حتى إن رفاقها في المدرسة كانوا يخبئون الكتب عندما تزورهم... إلا أنها كانت تنسحب إلى عالمها الخاص فتنسج القصص من خيالها طيلة الوقت. التقت هي نفسها «فارس أحلامها»، وهو أسمر البشرة طويل القامة، فتزوجا وعاشا بسعادة لأكثر من عشرين عاماً، أنجبت خلالها ستة أولاد.

بدأت شانتيل بقراءة قصص «Mills & bonn» وهي في سن المراهقة وأثناء مكوثها في المنزل لرعاية أطفالها، إذ وجدت أن قراءة القصص الخيالية تساعدها كي لا تفقد عقلها أثناء ذلك!

تشعر شانتيل بالمتعة عندما تقرأ وتكتب قصصاً عن النساء الرقيقات اللواتي يتحلين بالإرادة القوية والأبطال الجذابين الأكثر قوة، فهي تشعر حينها أنها في قمة السعادة. يحضرها الإلهام القصصي فيما هي تعد الطعام، إلا أن ذلك يسبب الكثير من الكوارث في المطبخ! تحب شانتيل أيضاً العمل في الحديقة، المشي وأكل الشوكولا (يتبع ذلك المزيد من المشي!).

التمهيد

شهر آب.

قالت سارة داير بهشاشة: «بالطبع، نحن لم نقم برشوة جان لوك لكي يتزوجك! مع أنني أقر بأننا قدمنا له بعض الحوافز المادية».

- آه، يا إلهي!

استدارت إميلي مبتعدة عن والدتها، بينما غمرتها موجة من الغثيان. اعتادت سارة قضاء بضعة أسابيع خلال الصيف مع أصدقائها في هامبستيد، وبالرغم من أن الأم وابنتها ليستا مقربتين تماماً من بعضهما، إلا أن سارة هي أول شخص تلجأ إليه إميلي عند الحاجة. لكن عوضاً عن التعاطف معها، قامت سارة عن غير قصد بدق المسمار الأخير في نعش زواج إميلي.

- حبيبتي! عليك أن تفهمي أن جان لوك فايلون ليس كبقية الرجال. لا يمكن للمرء أن يجمع ثروة تقدر بعدة ملايين من الجنيهات من دون أن يكون لديه أثر من القساوة في القلب. زوجك هو قبل كل شيء رجل أعمال.

غمغمت إميلي بكآبة: «أعلم».

هي ليست بحاجة إلى من يذكرها بتكريس لوك نفسه لعمله، لكنها مستعدة لتحمل رحلات العمل المضنية والساعات الطويلة التي يمضيها وحده في مكتبه، لو شعرت أن هنالك أي أمل بأن يحبها.

تابعت سارة كلامها بعد أن ألقت نظرة أخرى إلى وجه ابنتها الشاحب، قائلة: «المشكلة يا إميلي هي أنك رومنسية. لعل جان لوك يقيم علاقة غرامية عابرة مع مساعدته الشخصية، وهذا أمر عادي،

لكنك زوجته. فترة الحمل تشكل ضغطاً هائلاً على الزوجين».

أضافت سارة جملتها الأخيرة، وهي تنظر إلى بطن إميلي المنتفخ، ثم تابعت: «بصراحة، أتصور أن زوجك رجل عفيف جداً. حالما يولد الطفل سوف يعود كل شيء إلى طبيعته. سترين!».

لكن ما الذي يمكن أن يعتبر أمراً عادياً؟ تساءلت إميلي بوهن، فيما مشت متعبة عبر المنتزه، بعدما طمأنت والدتها بأنها لن تقدم على أي خطوة متسرعة.

أدركت إميلي بعد زواجها مباشرة أن دورها في حياة لوك ينحصر بغرفة النوم فقط. الشكل الوحيد للتواصل بينهما كان من خلال الجاذبية الحادة التي تولدت بينهما منذ اللحظة الأولى للقائهما. جعلهما شغفهما متقاربين، لكنهما من دونه لا يمتلكان أي شيء مشترك.

كان المنتزه مكتظاً بالناس، والهواء يطن بضحكات الأطفال، حيث استغلت العائلات أشعة شمس أواخر الصيف. راقبت إميلي رجلاً يلعب بطائرة ورقية مع صبي صغير، فطرأ شيء ما على ذهنها. أطلقت أنيناً خافتاً، وبسرعة غطت فمها بيديها. لا يمكنها أن تنهار الآن... ليس هنا... لكن رجليها استسلمتا فتهاوت على أحد المقاعد، فيما واجهت حقيقة أن ابنها لن تتاح له الفرصة أبداً لقضاء وقت ممتع مع والده كهذا الصبي.

فكرت إميلي يائسة أن بمقدورها البقاء من أجل الطفل الذي تحمله في أحشائها. يمكنها أن تتغافل عن حقيقة أن زوجها كاذب وغير وفي. لكن جان لوك لم يرغب بطفلهما تماماً كما لم ترغب هي به. نظرات الرعب التي ارتسمت على وجهه عندما علم بحملها ما زالت تطاردها، أما برودته تجاهها منذ ذلك الحين، فدعمت اعتقادها بأنه يعتبر زواجهما مجرد غلطة ارتكبها.

تساءلت ببؤس منذ متى بدأت علاقته الغرامية مع مساعدته تلك؟ عملت روبين بلايك عنده لسنوات، ومنذ البداية، لم تفوت أية فرصة كي تؤكد على العلاقة المميزة التي تتشارك فيها مع لوك. المشكلة هي

أنها أرملة شقيقه، وليست مجرد فرد من طاقم الموظفين لديه. حاولت إميلي كبت مشاعر الغيرة، لكنها الآن حصلت على برهان قاطع بأن روبين هي عشيقة لوك، لذا فإن إحساسها بالخيانة لم يعد يطاق.

جادلها صوت داخلي: ماذ بشأن طفلها؟

عندما أجرت إميلي الصورة الصوتية، واكتشفت أنها تحمل طفلاً، ظلل حماسها بؤس كبير لعدم وجود لوك معها. لم يزعج نفسه حتى بالمجيء إلى المستشفى من أجل رؤية الصورة السحرية الصغيرة لطفلهما، أما هي فاضطرت إلى مواجهة الحقيقة المعذبة أنه بكل بساطة لا يأبه. حتى لو أخبرته إميلي بأنها ستنجب صبياً، فذلك لن يحدث فرقاً كبيراً في موقفه. راح يبتعد عنها أكثر فأكثر مع مرور الأيام، أما لامبالاته اللبقة فعذبتها كثيراً. ربما من الأفضل أن تتركه الآن، قبل أن يولد ابنها، وأن تغمر صغيرها بحبها، بدلاً من تركه يعاني من الألم لدى إدراكه بأن والده يمتلك كتلة من الجليد مكان قلبه. تقبلت إميلي بوهن أن هجرها للوك سوف يفطر قلبها، لكن لو بقيت معه الآن فذلك سيقتلها. توجهت متعثرة نحو الطريق وهي تكبت نشيجها.

سألها سائق سيارة الأجرة بمرح: «إلى أين أيتها الجميلة؟».

أحست إميلي أنها ممزقة بعدم قدرتها على اتخاذ القرار، فيما حام فوق شفتيها عنوان شقة لوك في شيلسيا. لعل هنالك تفسيراً منطقياً لقضائه تلك الليلة مع روبين بعد عودته من أستراليا، بدلاً من العودة إلى المنزل... إليها؟ لم تقوَ على صرف الصور التي عذّبت ذهنها بتخيلها للوك مع مساعدته الجميلة.

قالت لنفسها بوحشية إنه يجدر بها مواجهة الأمر. لقد انتهى زواجهما! فكرت أن لوك لم يحبها قط، ولكي تكون منصفة، عليها الاعتراف بأنه لم يدّعِ ذلك يوماً. أما اعتراف والدتها لها بأن عرض لوك بالزواج منها كان جزءاً من صفقة مالية ذكية، فيؤكد حقيقة أنه لا يحبها. أما هي فتحبه كثيراً... ربما أكثر من اللازم. إنه حياتها ودافعها للحياة. في تلك اللحظة أحست بركلة صغيرة عازمة تدفع بطنها. ذكرت

إميلي نفسها بقسوة أن هنالك دافعاً جديداً الآن، لذا رفعت ذقنها، وأعطت السائق المنتظر عنوان شقة صديقتها لورا.

١ - أين المفر؟

بعد مرور عام. سان أنطونيا.

- هل أنت واثقة من أن كل شيء بحوزتك؟ جوازات السفر، التذاكر، مفاتيح الشقة...

ودعت إميلي صديقتها بمرح، وقالت: «كل شيء على ما يرام. كفي عن القلق. لديك ما يكفي لتقلقي بشأنه. آه! ها قد وصلت العربة».

ضحكت إميلي وهي تتبع لورا إلى الخارج نحو الباحة. كان المنزل الريفي في سان أنطونيا في ما مضى ملجأً هادئاً لصديق لورا الحميم جو. أقنع جو لورا بالانضمام إليه في إسبانيا، حيث افتتحت مدرستها الخاصة لتعليم فن الطهو. لاقى عملها نجاحاً فورياً، فراحت تعد الطعام للسياح المتشوقين إلى أخذ دروس من طاهية مبتكرة حصلت على خبرتها من خلال عملها في مطعم لندني بارز.

شعرت إميلي بالسرور من أجل لورا، وأسعدها أن تتمكن من مساعدتها في تنظيم غرفة الجلوس الخاصة بالضيوف، وترتيب خدمات المنامة، لكن الوقت حان كي تعود إلى إنكلترا.

- آمل أن تتدبري أمرك جيداً.

غمغمت إميلي بذلك وهي تنضم إلى صديقتها على الدرج الأمامي للمنزل، وتراقب اقتراب العربة. تابعت: «قد أتغيب لبضعة شهور، ريثما يهتم المحامون بأمر الطلاق».

ردت لورا بعبوس: «بحسب ما تعلمته من تجربتي المريرة، لعل من الأفضل أن أحذرك بأن الأمر قد يستغرق وقتاً طويلاً. استغرقت قضية طلاقي ما يزيد عن السنة، وكلفتني ثروة صغيرة من المال».

www.elromancia.com

قالت إميلي وهي تهز كتفيها: «أنا لا أتوقع أية مشاكل، فلوك ليس أقل حماسة مني حتى ينهي زواجنا».

فكرت بكآبة أن هذا هو الواقع، لاسيما إذا أخذت بعين الاعتبار الصورة الفوتوغرافية الأخيرة التي نُشِرت له في إحدى الصحف البريطانية التي تنشر الإشاعات. عندما رأت مجدداً ملامحه السمراء الوسيمة، كاد قلبها يتوقف عن الخفقان. شعرت إميلي بالصدمة عندما اكتشفت التأثير الذي ما زال لوك يتركه عليها، حتى بعد مرور عام على انفصالهما. لكن رؤيتها لرفيقته روبين بلايك المذهلة الجمال، ساعدتها على اتخاذ قرارها بإنهاء زواجهما المزيف. فكرت إميلي أن الوقت حان كي تضع الماضي خلفها، فهي أم لطفل، وتمتلك عملاً جديداً خاصاً بها، كما أن لديها الحرية بأن تعيش حياتها بالشكل الذي تختاره. ذكرت نفسها بحدة أنها تستمتع باستقلاليتها، وأنها قاومت بشدة كي تعيد بناء ثقتها بنفسها، والآن حان الوقت كي تقطع الروابط القانونية التي ما زالت تعلّقها بجان لوك فايلون.

سألتها لورا: «برأيك، ما الذي ستشعرين به عندما ترين زوجك مجدداً؟».

- إذا حالفني الحظ، لن أضطر إلى ذلك. أنا لا أريد أي شيء منه لاسيما المال.

أضافت عبارتها الأخيرة بحدة، فعلقت لورا: «يحق لك أن تطالبي بنفقة ملائمة لجان كلود، فلوك والده مهما يكن، ولن يضرّه التمتع بجزء من ملايين آل فايلون».

صدّت إميلي الاقتراح على الفور قائلة: «لا! أنا المسؤولة عن ابني، وسوف أوفر له كل ما يحتاج إليه. لوك لم يرغب أبداً بإنجاب طفل. حملي بجان كلود كان حدثاً عرضياً، وأنا أرفض استخدامه كوسيلة للكسب المادي. سوف أتدبر أمري».

وعندما عبست لورا بقلق، أكدت لها: «لن آخذ أي شيء من لوك».

بدا لها الأمر بأسره بسيطاً جداً، سوف تتصل بلوك من خلال فريق

ثالث، وإن عبّر عن أي اهتمام برؤية ابنه، يمكن للمحامين أن يبلغوه بترتيبات التواصل معه بالإضافة إلى إجراءات الطلاق. لم تتوقع إميلي أية تعقيدات، لكن عندما نظرت إلى حيث ينام جان كلود في عربته، وهو محمي بمظلة تقيه من الشمس، غمرها إحساس بالتشاؤم. لا شيء يتعلق بجان لوك فايلون يعتبر أمراً بسيطاً. إنه رجل مليء بالأسرار. بالرغم من بقائهما متزوجين لمدة سنتين، إلا أنها لم تكن تعرفه حق المعرفة.

- وصل أحدهم بوسيلة نقل فخمة.

قاطع صوت لورا أفكار إميلي، فنظرت عبر الباحة الخارجية نحو سيارة الليموزين السوداء التي مرت خلف العربة. تابعت لورا: «آمل أن يفهموا بأن هذه الإجازة يتخللها بعض العمل. ليس لدي متسع من الوقت كي ألاحق زوجة مليونير مدللة، لا تعرف كيفية سلق البيضة. حسناً! سائق العربة جاهز كي يقلّكِ إلى المطار».

أضافت لورا ذلك، فيما خطت إلى الأمام لترحب بضيوفها. طبعت قبلة سريعة على خد إميلي قبل أن تقول: «انتهى من تفريغ الأغراض الآن، لذلك يمكنك أن تعطيه أمتعتك قبل أن تضطري إلى إزعاج جان كلود. اعتني بنفسك! سوف نحتفل بحياتك الجديدة كامرأة عزباء عندما تعودين».

ألقت إميلي نظرة وجيزة نحو عربة الطفل، فوجدت أن جان كلود ما يزال نائماً، لذا قررت أن تدعه لبضع دقائق إضافية، فيما تقوم بتحميل حقائبها.

- كيف حالك إينزو؟

حيّت إميلي سائق عربة الخيل الذي يقوم برحلات منتظمة بين سان أنطونيا والمطار.

- مرحباً، سيدتي! تبدين جميلة اليوم.

استغرق الحديث حول عائلة إينزو خمس دقائق إضافية، وعندما عادت إميلي ونظرت إلى الوراء نحو عربة طفلها وجدتها فارغة.

فكرت، لابد أن لورا أخذت جان كلود إلى داخل المنزل، وأحست بوخزة من عدم الارتياح. شيء ما جعلها تدير رأسها نحو السيارة المركونة في الناحية البعيدة من الباحة.

ظنت إميلي لبضع لحظات أن ما تراه خدعة بصرية سببها الضوء، أو سراب سببه حرّ منتصف النهار، لكن عندما رمشت عينيها أدركت أن ما تراه ليس وهماً. هذا الرجل مذهل! فقوة كتفيه العريضتين البارزتين تبدو واضحة تحت سترته المتقنة التفصيل، حتى إن ارتعاشة سرت في أعماقها.

بدا الهواء في الباحة الخارجية ساكناً، والجو حاراً ورطباً، لكنها لم تقوَ على كبت ارتعادة في داخلها، بينما انتقلت نظراتها صعوداً نحو وجه الزائر، فتلاقت مع نظراته الرمادية الباردة. بدت عيناه محجوبتين غامضتي التعابير، لكن القساوة المنبثقة من طبيعته المتعجرفة صعقتها، فأطلقت صرخة، وهي تشعر بأن العالم يدور من حولها.

- لوك!

جعلها الارتباك تغمض عينيها، كما لو أنها بذلك تستطيع أن تتخلص من الرؤية غير المرحب بها. لكن عندما فتحتهما مجدداً، وجدت أنه ما يزال واقفاً هناك، وكأنه أكبر من الحياة نفسها. اتجهت يداها بسرعة نحو فمها لتكتم صرختها.

- ما الذي تفعله هنا؟ ما الذي تريده؟

طالبته إميلي مرتعشة، فيما كادت الصدمة تسلبها صوتها. ابتسم لوك كاشفاً عن أسنانه، فذكّرها بمنظر الذئب الذي يستعد لالتهام فريسته. وبخها ساخراً بنعومة: «حصلت للتو على ما جئت من أجله، حبيبتي. الخيار يعود إليك إن رغبت في الانضمام إلينا أم لا».

حدقت إليه بارتباك، ثم سألته: «إلينا...؟ أنا لا أفهم».

راح ذهنها يتحرك ببلادة. أحست أن أنفاسها متقطعة وبأنها مرتبكة. بدأ قلبها يخبط بقوة، وتطلب الأمر كل ذرة تمتلكها من الشجاعة كي ترفع نظرها إلى وجهه. أقل ما يمكن أن يقال عنه، إنه يبدو أكثر وسامة

مما تتذكر، كما بدا أكثر صلابة ورشاقة من الرجل الذي طاردها في أحلامها بانتظام. النظر إليه أثار شعوراً غريباً في داخلها، أشبه بطعنة سكين بين ضلوعها. أشاحت بنظرها بعيداً عنه، ورمشت عينيها تحت وهج الشمس المشعة بقوة.

وصول لوك إلى المنزل الريفي أمر لم تتوقعه إطلاقاً، فلم تدرِ ما الذي عساها تفعله أو تقوله. أخيراً نعقت قائلة: «كيف وجدتني؟».

ذكّرها لوك ببرودة: «أنت راسلتِ مستشارك القانوني، وطلبت منه أن يباشر إجراءات الطلاق. لابد أن أثني على السرعة التي اتصل فيها بمكتب المحاماة الخاص بي كي يحرك عجلة الأمور».

تلعثمت إميلي وهي تقول: «السيد كارمايكل تولى المسائل القانونية الخاصة بعائلة داير لسنوات، وأنا طلبت منه أن يتكتم على مكان وجودي. لا أصدق أنه أطلعك على تلك المعلومات».

غمغم لوك بصوت حريري: «لا، لكن سكرتيرته الجميلة بدت أكثر مرونة، فدعواتي المتكررة لها إلى العشاء أثمرت فوائد جمة.».

أضاف لوك عبارته الأخيرة بعذوبة، أما اللمعان المفاجئ في عينيه فسبب لإميلي الغثيان.

ردت إميلي بكلمات لاذعة، بينما راح الألم يتآكلها من الداخل: «أنا فعلاً لا أود معرفة التفاصيل القذرة لحياتك العاطفية، لكنني ما زلت لا أفهم لما أنت هنا».

تناهت إلى أنفها رائحة عطر ما بعد الحلاقة المألوف الذي يفضله لوك، ما استدعى لديها فيضاً من الذكريات التي تمنت لو أنها تبقى مدفونة. تابعت تقول بصلابة: «أفترض أنك قرأت رسالتي التي تفسر للسيد كارمايكل بأنني سوف أعود إلى لندن كي أهتم بأمور الطلاق. لِم لم تنتظرني هناك؟».

استنشق لوك أنفاسه بحدة، وهو يحاول التحكم بالسخط الذي يجيش في داخله، ثم قال: «أمضيت حوالى السنة من الزمن وأنا أتوق إلى رؤية ولدي».

ضغط على أسنانه بوحشية، أما عيناه فبدتا باردتين وصلبتين، لذا ارتعدت إميلي حين أدركت مدى غضبه. تصلب فك لوك بسبب التوتر حين قال: «هل تتوقعين مني حقاً أن أنتظر بلا مبالاة، على أمل أن تظهري؟ ألديك أية فكرة عن شعوري حين علمت بواسطة رسالة أرسلها محاميك أنني أصبحت أباً لطفل؟ قمت بإبلاغ السيد كارمايكل، لكنك لم تتحلي باللياقة الكافية حتى تخبريني أن ابني قد ولد. لا يمكنني أن أغفر لكِ مطلقاً».

دافعت إميلي عن نفسها وقد حيّرها غضبه، فقالت: «ما الذي كان يجدر بي أن أفعله؟ لِم سأهرع إليك حتى أخبرك أنني ولدت ابننا، في حين أنك كنت تعارض حملي به بشدة؟ أوضحت لي أنك لا تريد أياً منا لوك، فكيف يمكنك أن تلومني على رغبتي بتربية جان كلود بين أشخاص يهتمون لأمره؟».

زمجر لوك باهتياج: «إن كنت تظنين أنني سأسمح لولدي أن يمضي سنواته الأولى في مجتمع للهيبيين، فأنت واهمة أكثر مما ظننت. حُرمت من متابعة نمو ابني أثناء الشهور الأولى من حياته، وأنا أحملك المسؤولية كاملة عن ذلك... أنت ونظرياتك التافهة حول علاقتي الغرامية مع مساعدتي الشخصية، وأضع اللوم عليك وحدك. الغيرة ليست عاطفة جذابة حبيبتي».

راحت عيناه ترمقانها باحتقار، ثم تابع: «سمحتِ لرغباتك الطفولية وتوقك إلى نيل الاهتمام أن يطغيا على أحكامك، لكن الشخص الذي سوف يعاني من جراء ذلك هو ابننا. بأي حق تحرميه من علاقته بي؟ من الآن فصاعداً سوف يعرف بالضبط من هو والده».

قال لها لوك ذلك بحدة، فيما كانت نظراته تفيض بالمرارة.

- أنا لن أمنعك أبداً من رؤية جان كلود، إذا كان هذا ما تريده.

غمغمت إميلي بذلك فيما حاولت أن تتقبّل الإدراك المذهل بأن لوك يريد ابنه حقاً. فكرت بمرارة أن رؤيته لجسدها أثناء الحمل ولدت لديه نفوراً، أما الآن فيبدو أنه بدل رأيه بالأمر. قالت: «افترضت أنك لن

ترغب بأن تكون لك أي علاقة به، لكنني مستعدة لأن أكون مرنة حيال تدابير الحضانة، إذا كنت حقاً قد تخليت عن كراهيتك للأبوة».

- يا له من كرم من قِبلك!

جاءها صوت لوك مشبعاً بالسخرية والهزء، فاحمر وجه إميلي. لطالما تمتع لوك بالمهارة في جعلها تشعر وكأنها حقيرة ذليلة، لذا كانت إميلي تتراجع على الفور لدى إحساسها بأقل تلميح للمواجهة. أما الآن فرفعت ذقنها وحدقت به، فيما لعنت ردة فعل جسدها اللاإرادية تجاهه. كيف يعقل أنه ما يزال يحدث تأثيراً كبيراً عليها، خصوصاً بعد كل ما جعلها تمر به، وبعد الإذلال الذي أنزله بها؟ أقرت بكآبة أن حضوره غمرها وسيطر عليها، منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناها عليه. هنالك شيء ما في وجهه وعظمتي خديه الحادتين وأنفه المعقوف قليلاً، يمنحه مظهراً شبيهاً بالنسر. أما عيناه فتلتمعان تحت حاجبيه الأسودين الكثيفين، متيقظتين محاسبتين. من الصعب أن تصدق أن هاتين العينين تصبحان رقيقتين بلون الدخان ما يجعلها تضعف من فرط التوق أثناء أوقاتهما الحميمة.

عضت إميلي على شفتيها، وكبتت شهقة كادت تخرج منها، إذ حلّ في عمق معدتها ألم يدعو إلى التساؤل. أما هي فغرقت في مستنقع من مقت الذات، إذ ثارت في مخيلتها صور لم ترغب في تذكرها الآن. تساءلت لماذا تطل مشاعرها برأسها البشع في وقت كهذا، بينما ينظر لوك إليها بتفحص مهين؟ بسرعة شبكت إميلي ذراعيها فوق صدرها فيما غمرها الشعور بالغثيان عندما استقرت نظرات لوك عليها ولاحظت التواء شفته في استمتاع تهكمي.

تشدق قائلاً: «لكن... لطالما كنت كريمة معي في السرير. أليس كذلك إميلي؟».

- اذهب إلى الجحيم!

أجابته إميلي بكلمات لاذعة، بينما وخزت دموع الخيبة جفنيها. كيف يجرؤ على النظر إليها بهذا الشكل كما لو أنها فتاة رخيصة؟

- يفاجئني أنك تتذكر ذلك. مضت فترة طويلة منذ أن شاركتني السرير، لكنك لم تكن مضطراً إلى ذلك، أليس كذلك لوك؟ كنت منشغلاً في مكان آخر.

توقفت إميلي عن الكلام فجأة، فيما تلونت وجنتاها ببقعتين من اللون الأحمر. الآن ليس الوقت المناسب لتكشف أعماق الغيرة التي اختبرتها، طيلة تلك الليالي الطويلة التي أحست فيها بالوحدة، وهي تنتظره سدى كي يعود إلى المنزل.

- حالما أصل إلى لندن، سوف أطلب من محاميّ أن يتصل بمحاميك كي يرتبا تواصلاً ملائماً لك مع جان كلود.

أخبرته إميلي ذلك بإيجاز، بينما نظرت نحو المنزل الريفي. لاشك أن لورا تجاهد لاصطحاب زوارها في جولة إرشادية في أرجاء المطابخ، فيما جان كلود معلق على وركها. كلما أسرعت بحمل ابنها بين ذراعيها كلما أحست بسعادة أكبر. غمغمت بغرابة: «اعذرني! أنا بحاجة إلى الذهاب كي أبحث عنه».

افترضت أنه يتوجب عليها أن تدعو لوك إلى داخل المنزل الريفي كي يقابل ابنه، بينما تابع لوك التحديق إليها بتينك العينين الشبيهتين بأشعة اللايزر، إلى درجة جعلتها تظن أن بمقدوره قراءة أفكارها.

في الواقع، لم ترغب بدعوته إلى الداخل. سان أنطونيا هي أرضها، ولسبب ما هي تفضل أن يحصل أول لقاء للوك مع ابنه في الأرض المحايدة الخاصة بمكتب محاميها. أدركت بعد إلقاء نظرة إلى ساعة يدها، أن الوقت ينقضي. بدا سائس العربة نافد الصبر، وهي سوف تفوت رحلتها إن لم تكن حذرة.

- هل من عادتك أن تفقدي ابني؟

استفسر لوك وقد ارتفع حاجباه تهكماً، فاحمر وجه إميلي.

- بالطبع لا. أنا لم أفقده. أنا فقط وضعته في غير مكانه.

لم تلقَ أي رد من قبله، فأضافت: «إذاً، سأراك في لندن».

إنها بحاجة إلى الابتعاد عن لوك، لكن بدا لها كما لو أن قدميها

عالقتان في الرمال المتحركة، لذا لم تقوَ على الحراك، بينما تشربت عيناها بنهم تفاصيل وجهه. تسارع إلى ذهنها أن السبب ليس حبها له، بل لأن لوك يتمتع بجاذبية ما تزال قادرة حتى الآن على أسر حواسها.

- كما تشائين.

نبرة لوك الجافة المقتضبة كسرت لعنة السحر، بينما أبعد إلى الوراء كم سترته لينظر إلى ساعة يده. بدأت معدة إميلي بالانقباض، فاستنشقت أنفاسها بحدة. أما لوك فتابع كلامه: «نحن بحاجة إلى التحرك على أي حال».

أربكتها كلمات لوك، فأطلقت إميلي ضحكة خشنة، وأضافت ساخرة: «دعني أحزر. روبين تنتظرك في السيارة. لا شك عندي أنها تكرس نفسها بتفانٍ من أجل واجبات العمل».

سار لوك مبتعداً عنها، ثم توقف لفترة وجيزة كي ينظر من فوق كتفه: «نعم. تصرفات روبين ومواقفها مثالية، لكنها ليست برفقتي هذه المرة. جان كلود هو في السيارة، ولا شك أنه بدأ يتململ. إلى اللقاء، حبيبتي».

ما إن أدخل لوك رأسه إلى داخل السيارة، حتى بدا كما لو أن قدمي إميلي صار لهما جناحان فجأة. قالت: «لوك... مهلاً! ما الذي تقصده بقولك إنه في السيارة؟ جان كلود هو في المنزل مع لورا. أليس كذلك؟».

أنهت كلامها غير واثقة، أما هدوء تعابيره فلم يسهم إلا في مضاعفة خوفها.

- وضعت ابني بأمان داخل السيارة، بينما كان اهتمامك...

توقف لوك للحظة، ثم تابع: «... في مكان آخر. أخبريني عزيزتي! هل أنت دوماً غير مبالية حيال تركه بإهمال تحت وهج أشعة الشمس؟».

دافعت إميلي عن نفسها بحدة: «كان ينام بأمان محمياً بالمظلة، وأنا لم أتركه بإهمال. كان نائماً، وأنا كنت...».

أرادت أن تفسر له كيف استغلت وقت قيلولة جان كلود الوجيز كي تضع حقائبها داخل العربة، لكن المقت الساخر في عيني لوك جعلها ترغب بالهرب بعيداً.

- كنت شديدة الانشغال، فلم تتفرغي لمراقبته. كان بمقدور أي شخص أن يأخذه.

أثبت لوك وجهة نظره بالنظر نحو السيارة، فاحمر وجه إميلي. صحيح أن اهتمامها كان منصباً على رحلة العودة إلى لندن، لكنها تفقدت الطفل بانتظام. فضلاً عن ذلك، المنزل الريفي على بعد أميال من أي مكان آخر.

كانت إميلي قد وصلت إلى السيارة، وسرعان ما كشفت لها نظراتها المصدومة أن جان كلود هو فعلاً في الداخل، وهو مربوط بحزام على كرسي مخصص للأطفال، فيما هو مستغرق في اللعب بسرور بالألعاب ذات الألوان المشرقة الموضوعة أمامه. ما لبثت الصدمة أن أفسحت المجال للسخط التام كي يحل محلها، فقالت متلعثمة: «لكنك... لا تستطيع أن... تأخذه بهذه البساطة. كيف تجرؤ على أخذه مني؟ أنا أمه».

أطلقت إميلي كلامها نحو لوك، وبدا السخط والهيجان واضحين في نبرة صوتها، فيما تلاعبت أناملها بمقبض باب السيارة.

أطبقت يد لوك على الفور على يد إميلي، فألمتها قبضته، فيما راح يراقبها بثبات. قال لها: «وأنا والده، ومع ذلك لم تظني أن من الخطأ أن تبعديه عني. تعمدتِ الاختفاء عن الأنظار، ولولا جشعك لما استطعت أن أجدك، أو أجد ابني... وهو الأهم لدي».

ردّدت إميلي بوهن: «جشعي؟!».

لاحظ لوك بنظراته المزدرية ذاك المنزل الريفي القديم المتداعي، فقال بنبرة ملؤها الاستهزاء: «أفترض أنك أملت في الحصول على تسوية طلاق كريمة، تساعدك في متابعة أسلوب الحياة الذي تعودت عليه. بالرغم من هذا، لست واثقاً ما هو سبب حاجتك إلى المال في

هذه البقعة المنسية من الأرض. لعلك تريدين المال لأسباب أخرى لا علاقة لها بتوفير بيئة آمنة لجان كلود؟».

حملقت إميلي بلوك، ووضعت إحدى يديها على وركها، فيما كانت الأخرى ما تزال عالقة تحت يده، وسألته: «مثل ماذا؟».

هز لوك كتفيه بلا مبالاة، وقال مخمناً: «ربما... المخدرات؟ من يعلم ما الذي يدور داخل مجتمعك الهيبي هذا؟ جل ما يهمني هو أنه مكان غير ملائم لتربية طفل صغير، لاسيما ابني».

بالكاد استطاعت إميلي أن تتكلم، إذ أحست أن الغضب يكاد يخنقها، فقالت: «آه! يا لك من أب شديد الاهتمام! سان أنطونيا ليست نوعاً من البؤر التي تتحدث عنها. إنها مجتمع نام ناجح، حيث يعمل الجميع متعاونين، وحيث تدير صديقتي لورا مدرسة تعلّم فن الطهو للسيدات اللواتي هن في منتصف أعمارهن. الأدوية الوحيدة التي تجدها هنا هي أدوية لمعالجة داء المفاصل، أو أدوية لمعالجة انقطاع الدورة الشهرية!».

رد لوك بكلمات لاذعة: «أنا لم أُمنح أبداً فرصة لأبرهن كفاءتي كوالد، لكن هذا الحال على وشك أن يتغير. ابني سوف يأتي معي».

- اللعنة! إنه لن يذهب!

لاحظت إميلي بطرف عينها أن سائس العربة ينحني مطلاً من نافذته.

- سنيوريتا! علينا أن نذهب.

- نعم. لن يطول بي الأمر أكثر من دقيقة.

حاولت إميلي أن تفتح باب السيارة، لكن يد لوك أحكمت قبضتها حول أناملها، إلى حد جعلها تخشى أن تنكسر. استجلب ذلك دموعاً إلى عينيها هي مزيج من الألم والخوف معاً. قالت: «بحق السماء، لوك! لا يمكنك أن تأخذه».

أجابها لوك بنبرة قاسية: «على العكس، حبيبتي. أنا أخذته للتو، والأمر يعود إليك إذا ما رغبتِ بالمجيء أم لا. بالنسبة لي، تسرني رؤيتك تحترقين في نيران الجحيم إلى الأبد، لكنني لصالح الطفل أقترح

عليك أن تصعدي إلى السيارة».

فجأة وبدون مقدمات أفلت لوك قبضته وفتح الباب، بينما حدقت إميلي بجموح في أرجاء الباحة بحثاً عن شخص ما ليساعدها.

- لا مجال أبداً بأن أسمح لك بأخذه من دوني.

أكدت إميلي ذلك بحدة، ثم أطلقت صرخة يائسة عندما بدأت عربة الخيل تتحرك. صاحت: «حقائبي على متن العربة. إينزو، انتظر!».

لابد أن إينزو لاحظ تلويحها المذعور في مرآته الخلفية، فأوقف العربة. لكن الأمر تطلب من إميلي دقائق ثمينة كي تجرجر حقائبها من المكان المخصص للأمتعة. عندما عادت ونظرت إلى الوراء لاحظت أن سيارة الليموزين بدأت تتحرك قدماً.

- أيها اللعين! كنت تعلم أنني قادمة.

أمسكت الباب الخلفي، وفتحته بالقوة، ثم رمت حقائبها داخل المكان، بينما لم يقم لوك بأية محاولة في الطلب من سائقه التوقف. راحت إميلي تلهث بقوة وهي تندفع إلى داخل السيارة.

أخيراً سحبت الباب وأغلقته خلفها، ثم قالت له بكلمات لاذعة: «سوف أتهمك بالاختطاف».

إلا أن ابتسامة لوك الساخرة أعلمتها أنه يدرك كما تدرك هي تماماً، بأنها لن تحظى بأية فرصة لتنفيذ تهديدها. لقد وقعت في الأسر، وصارت تحت رحمة لوك المطلقة. أدركت إميلي ذلك فتملكها الذعر. بعدئذٍ تم تشغيل القفل الآلي الخاص للباب.

غمغم لوك ببرودة، بينما استقرت نظراته على وجهها المحمر: «هذا ليس اختطافاً. أنا أفضل استخدام كلمة استعادة ممتلكات، وأعدك عزيزتي أنك هذه المرة لن تتمكني من الإفلات!».

٢ - أهلاً بعودتك

كادت الأجواء داخل السيارة تنفجر من شدة التوتر. فجأة فقد جان كلود اهتمامه بالألعاب، وحدّق إلى إميلي، فيما راحت شفته السفلى ترتجف.

- لا بأس... ماما هنا. لن يؤذيك أحد.

طمأنته إميلي برقة وهي تداعب خده، فأدار جان كلود عينيه الرماديتين الواسعتين نحوها، وسرعان ما جفّت دموعه وأطلق ابتسامة كشفت عن سنّه الوحيدة في مقدمة فمه. كان لوك يجلس إلى الجانب الآخر من كرسي الطفل، فتصلب لدى سماعه كلماتها، واجتاحه الغضب المرير. زمجر غير غافل عن ضرورة إبقاء صوته منخفضاً كي لا يخيف جان كلود: «بالطبع، أنا لن أؤذيه. أي نوع من البرابرة تظنينني بإشارتك إلى أنني قد أؤذي ابني؟».

ارتسمت على وجه إميلي ابتسامة من أجل جان كلود وحده، فيما ردت: «أنت لن ترغب بمعرفة رأيي فيك. حاولت أن تنطلق بالسيارة من دوني. ألا تظن أن انتزاع الطفل بالقوة من بين ذراعي والدته قد يؤذيه؟».

رد لوك مظهراً نفاد صبره: «لا تكوني دراماتيكية إلى هذا الحد، فأنت لم تكوني معه، حتى إنك تخليت عنه. أي نوع من الوالدات أنتِ؟».

مرّرت إميلي يدها المرتعشة فوق وجهها، ثم قالت: «أنا والدة جيدة، كما أنني لم أتخلّ عنه. عمره لا يتجاوز الأحد عشر شهراً، بحق السماء! كيف تظنه سيتأقلم من دوني؟ إنه يحتاج إليّ».

راقبها لوك بصمت، مجيلاً نظراته على جسدها النحيل، فانكمشت إميلي، وتمنت لو أنها لم تكن ترتدي تنورتها الغجرية ذات اللون البرتقالي المشرق مع قميص قطنية صفراء من دون كمين. كذلك فهي عقدت شعرها إلى الخلف، وأحكمت ربطه بشريط أصفر باهت، كما وضعت قرطين طويلين مع عقد، مصنوعة كلها من الخرز، كان قد صنعها لها أحد الفنانين. بدت عصرية وجذابة، أي النقيض المعاكس تماماً لأولئك النسوة الأنيقات المتميزات اللواتي يعجب بهن لوك. نساء أمثال مساعدته الشخصية روبين بلايك.

قال لوك بنبرة صوت جليدية: «أنت لست شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه إلى هذا الحد الذي تعتقدينه. سوف ينساك جان كلود فوراً، وعوضاً عن والدته سوف يحظى بأب».

تابع متجاهلاً شهقتها الخائفة: «على أي حال، أنا أتقبل أن من مصلحة جان كلود أن تلعبي دوراً في حياته، على الأقل الآن».

- ما الذي يعنيه هذا بالتحديد؟

- يعني أن من المحتمل أن يتبدل الموقف مع نمو جان كلود، لكنه في الوقت الراهن مجرد طفل، ومن الطبيعي أن يعتمد عليك. لهذا السبب وحده قررت أن أستعيدك أنتِ أيضاً.

أعلمها لوك بذلك بنبرته الباردة الموجزة، ما جعل إميلي تفتح عينيها بذهول حتى صارتا بحجم صحنين صغيرين.

- حسناً! اعذرني لأنني لا أقفز فرحاً، لكنني لا أرغب بأن تستعيدني. أنا راضية تماماً وقانعة بحياتي كما هي... من دونك.

ثم تشدّقت متابعة: «في الواقع، أنا لم أكن أسعد حالاً مما أنا عليه يوماً».

ارتكبت إميلي وهي تتكلم خطأ النظر نحو لوك، فالتهب وجهها، إذ أحست بردة فعل جسدها اللاإرادية تجاه جاذبيته الطاغية. إنها لا ترغب بأن تشعر على هذا النحو، ولا ترغب بأن تخترقها هذه الجاذبية الغامرة. أما أسوأ ما في الأمر، فهو إدراك لوك لمدى تأثيره عليها.

تشدق لوك فيما ارتسمت على وجهه ابتسامة متعجرفة، جعلت إميلي ترغب بالصراخ أو بأن تضربه: «أنا واثق أنه يمكنني أن أبتدع بعض الأفكار لجعلك راضية. لا أتذكر أنني واجهت أية مشاكل في إرضائك عندما تزوجنا. في الواقع عزيزتي، بعد أن أمضيت ليلة واحدة في سريري أصبحت تذكرينني بقطة تلتهم الكريما بشراهة».

آه! إن آخر ما تريده إميلي هو أن يتم تذكيرها بضعفها الكامل والتام أمامه. مجرد نظرة واحدة من عينيه الرماديتين الوامضتين كانت كافية لأن تجعلها طيعة بين يديه.

فكرت بيأس أن لوك يمارس معها لعبة فظة. يا له من أسلوب حقير في تذكيرها بضعفها الكبير تجاهه! لكنها تغيرت خلال هذا العام الذي أمضياه منفصلين. لقد نضجت، وباتت أكثر قدرة على السيطرة على مشاعرها. إنه رجل يتمتع بوسامة خارقة وبجاذبية قوية، لذا ليس من الغرابة أنه كان في ما مضى يسيطر عليها بقوة. لكنها تحررت الآن من تأثير سحره ولعنته، وهي ترفض الخضوع لهما مجدداً.

ظل جان كلود يراقبها، فاخترقت قلبها ابتسامته الجميلة. إنه ببراءته لا يدرك مدى المرارة الموجودة بين والديه. إنه اليوم مجرد طفل، لكنه سيلاحظ أثناء نموه إشارات تدل على أن والديه يكرهان بعضهما البعض، ولابد أن هذه الكراهية ستدمره.

همست: «هذا سخيف! ألا يمكننا أن نعلن هدنة ونهدف سوياً لطلاق ودي من أجل مصلحة ابننا، بدلاً من أن نتقاتل للحصول عليه؟ أليس الأهم هو أن نمنح جان كلود أفضل تربية ممكنة؟».

رد لوك وقد تشابكت نظراته مع نظراتها: «أنا موافق، ولهذا السبب لن يكون هنالك طلاق. ابننا يستحق أن يربيه والدان يحبانه، حتى لو لم يحبا بعضهما البعض».

تابع كلامه متجاهلاً شهقة الصدمة التي أطلقتها إميلي، فقال: «سوف تبقين زوجتي عزيزتي في السراء والضراء».

حذّرها لوك بنبرة دلّت على تصميمه، متابعاً: «سوف يكون زواجاً

حقيقياً، بكل ما للكلمة من معنى».

- لا يمكنك فعلاً أن تتوقع مني أن... أنام معك.

غمغمت إميلي بذلك بغير وضوح، فيما جعلها السخط غير قادرة على متابعة الكلام.

- لِم لا؟ لعل زواجنا واجه بعض المشاكل، لكن علاقتنا الحميمة كانت جيدة. لطالما كنا منسجمين تماماً في السرير.

- حسناً! أنت عرفت الكثيرات، لذا أصدق كلامك بهذا الخصوص، لكنني أخشى أنها ليست بتجربة أود تكرارها.

- هل هذا صحيح، يا صغيرتي؟

الاستمتاع المفاجئ الذي ظهر في صوته غذّى غضب إميلي، فلفّت أناملها في قبضتين متصلبتين ما جعل أظافرها تنغرز في كفيها.

تابع لوك: «الوقت سيظهر لنا الحقيقة، مع أنني آمل ألا يستغرق ذلك الكثير من الوقت».

- أفضل أن أقتل نفسي بدلاً من أن أحتمل لمساتك مجدداً.

استنشق لوك أنفاسه بحدة، بينما انتفض عصب في خده وهو يحدق بها.

- لا تمزحي بخصوص هذا الأمر، لاسيما أن كلينا نعلم أنك تكذبين.

فانتفضت إميلي وأدارت رأسها. فوجئت بالمرارة المطلة من عينيه وهو يتابع: «لعلك اخترت أن تلقي نفسك بعباءة من الخجل العذري كالراهبات، لكنك كنت تستمتعين تماماً في غرفة النوم».

حين أدارت إميلي عينيها المصعوقتين المملوءتين بالألم، تابع لوك بصوت حريري قائلاً: «قد أكون مستعداً لتحمل وجودك في حياتي من أجل جان كلود، لكن أظن أنه يحق لي ببعض التعويضات!».

استدار بعدئذٍ ليحدق إلى الخارج من النافذة. في ذاك الصمت الذي تلا تصريحه الصاعق، لم تقوَ إميلي سوى على التحديق بمنظره الجانبي القاسي. أدركت أنه يكرهها فعلاً، فغمرها شعور هو مزيج من الألم

والهلع. خلال الأشهر التي أمضياها سوياً بعد زواجهما، كانت إميلي قد رأت لمحات من مزاجه خلال إجرائه لعقود العمل, فخلف شخصيته ذات الكاريزما الساحرة يتوارى استخفاف عديم الرحمة بأي شخص يجرؤ على تخطيه. بالرغم من إصراره على استمرار زواجهما، فهو ينظر إليها باعتبارها عدوته. لوهلة أحست بالجبن، لكن من مكان ما غادت عزة نفسها لتنقذها، فرفعت ذقنها.

- أنا أنوي المضي قدماً في قضية الطلاق لوك. أنت لا ترغب فعلاً باستعادتي، كما أنك لا ترغب بأن تلعب دور العائلة السعيدة مع جان كلود. أنت لم ترغب به قط، ويمكنني أن أبرهن أنك كنت منشغلاً جداً بعلاقتك مع سكرتيرتك اللعينة أثناء حملي به، فلم تأبه البتة بي أو بالجنين الذي أحمله. ما تفعله الآن ليس له علاقة أبداً برغبتك في الحصول على جان كلود. أليس كذلك؟

تابعت إميلي كلامها بلا توقف، متجاهلة توتر فكيه.

- الأمر يتعلق بهوسك في السيطرة. أنت لم تكن تريدني أنا، وربما كنت ستطلقني عندما تصبح جاهزاً ومستعداً لذلك، لكنك لم تقوَ على تحمل فكرة أنني أنا التي هجرتك وغادرت. أنا تحديتك، لذا تريد أن تعاقبني بمطالبتك بالطفل الذي لم تشأ أن يولد أصلاً.

- كفى!

بدا صوت لوك واخزاً كلسعة السوط، بينما أدار رأسه ليواجه إميلي، فأجفلت بشكل واضح، مع ذلك رفضت أن تخفض بصرها. في ما مضى كان افتقارها المؤلم للثقة بالنفس يمنعها من مجاراة توقد ذهن لوك الذكي اللامع، أما الآن فلديها جان كلود لتحارب من أجله. لذا حملقت به بقوة عازمة على ألا ترتعب منه.

- يا إلهي! صار لسانك لاذعاً كلسان الأفعى. أنا أحاول جاهداً أن أكون منصفاً معك، وهذا أكثر مما تستحقينه، في حين أنك لم تمنحيني الاعتبار نفسه. سرقتِ ابني، وقمت بإخفائه عني. دعيني أوضح أمراً مرة واحدة وإلى الأبد إميلي...!

زمجر لوك متابعاً: «... أنا رغبت بابني منذ البداية. تقت إلى حمله بين ذراعي، لكنك طيلة الشهور الماضية حرمتني حتى من المعرفة بوجوده في هذا العالم. أما الآن، وقد وجدته، فلا شيء في هذا العالم سوف يجعلني أتخلى عنه. إذا كنت تصرّين على طلب الطلاق لا يمكنني أن أمنعك، لكنني سوف أحارب من أجل جان كلود بكل وسيلة متوفرة لدي. إذا كنت ترغبين بشن الحرب بيننا بدلاً من السلام، فقومي بذلك، لكنني آمل أن تكوني قادرة على تحمل العواقب، لأنني أنا من سيربح».

كانت السيارة تسير مسرعة طوال الطريق، فيما حالت الأبواب الموصدة تماماً دون هروبها، فمنعتها من القفز خارجاً. لوك قادر على تحمل نفقات أفضل المحامين في البلد، وإن قرر أن ينال حضانة جان كلود، فهي لن تحظى بأية فرصة في مواجهته. أدركت إميلي بأسى أن الخيارات نفدت منها في الوقت الراهن على الأقل، وها هو لوك يفوز كعادته. أخذت إميلي تغلي بصمت من الغضب، إلى أن انفجرت قائلة بضغينة: «أنا أكرهك!».

أما لوك فهزّ كتفيه بلا مبالاة.

- حسناً! أنا لن أجبرك على تحمل رفقتي. إذا كنت حقاً لا تعتبرين مصلحة جان كلود أولوية بالنسبة إليك، من الأفضل أن تخرجي من السيارة. قولي ذلك، وسوف أطلب من سائقي أن يتوقف وينزلك.

أشاحت إميلي بنظرها عنه نحو المنظر الطبيعي القاحل كالصحراء، المحيط بالطريق المقفر، فقبض الخوف عليها مجدداً.

همست قائلة: «حتماً أنت لن تتركنا هنا وسط المجهول، على بعد أميال من أي مكان».

- بالطبع لا. أخبرتك أن جان كلود سيبقى معي من الآن فصاعداً، لكنك حرة بالذهاب إلى حيث تشائين وساعة تشائين، يا حبيبتي.

- لا تنادني هكذا.

قالت إميلي ذلك بحدة، فيما تقلص جسدها كردة فعل على ذاك

التودد اللامبالي. هي لم تكن يوماً حبيبته، لذا همست: «قسوتك تتخطى الحدود».

أطلق لوك ضحكة خشنة: «أتتهمينني أنا بالقسوة، في حين أنك أنت من سرقتِ ابني؟ هذا أمر يتخطى الحدود، لكن صدقيني إميلي... أنا لا أسامح بسهولة، ولن أنسى أبداً».

ارتعشت إميلي لدى سماعها المرارة التي بالكاد تمكن لوك من إخفائها، فاستنشقت نفساً عميقاً بينما ركزت على المناظر الطبيعية العابرة بسرعة أمام ناظريها. تلاشى هلعها ببطء عندما شاهدت المطار أمامها. على الأرجح أن لوك ينوي العودة بالطائرة إلى لندن. حسناً! لن يتمكن من إسكاتها وإجبارها وجان كلود على الصعود على متن طائرة ما. فكرت إميلي أنها إن حافظت على ذهنها متيقظاً، فقد تجد فرصة سانحة لأن تختطف ابنها خلسة، فتستعيده وتنسل هاربة.

أجبرت نفسها على الاسترخاء مترقبة الوقت المناسب. في ذاك الصمت المشدود توجهت نظراتها بصورة لا إرادية نحو الرجل الذي طغى وجوده على السيارة. ليس من المنصف أن يبدو رائعاً إلى هذه الدرجة. فكرت بذلك بوهن، فيما أحست بألم في قلبها وهي تتأمل هيئته الجانبية المتجهمة العابسة، وبنيته الرائعة. أما بشرته الذهبية السمراء فبدت مشدودة فوق وجهه الصلب. وعلى الرغم من كونه في أواخر الثلاثينيات من عمره، لم تظهر أية لمحات فضية مطلقاً في شعره الأسود الكثيف. أغمضت إميلي عينيها لتصد موجة من الألم اجتاحتها وهي تتذكر ملمس شعره تحت أناملها. أما فكه المنحوت بدقة فيمنحه هيبة وسطوة تمازجهما قوة رجولية لا يستهان بها. لطالما استمتعت بملامسة بشرته أثناء الساعات الطويلة التي كانا يمضيانها في السرير...

ذكرت إميلي نفسها بسرعة أن ذلك حدث منذ وقت طويل جداً... خلال الأسابيع الأولى لزواجهما، حين كادت تقنع نفسها بأنها فعلت الأمر الصائب بالزواج من الرجل الفرنسي الغامض، الذي أملت أن يحبها يوماً كما تحبه، لكن سرعان ما تشتت ذاك الوهم. كانا قد أمضيا

عطلة نهاية الأسبوع التي تلت زواجهما في باريس، وكانا منغمسين جداً في شغفهما المتبادل تجاه بعضهما البعض. لدى وصولهما عائدين إلى لندن حملها لوك بين ذراعيه حتى وهما يستقلان المصعد نحو شقته التي تقع في الطابق العلوي من المبنى. لكن عوضاً عن التوجه مباشرة نحو غرفة النوم، تردد عندما وصل إلى المدخل، إذ خرجت متوجهة نحوهما أجمل امرأة رأتها إميلي في حياتها، لكي تحييهما.

روبين بلايك كانت في ما مضى عارضة أزياء مشهورة، وهي أرملة أخيه المتوفي، كما أنها مساعدته الشخصية. بدت تلك المرأة استثنائية، مميزة. في الواقع، ليس هنالك من وصف آخر يناسبها أكثر. أحست إميلي على الفور أنها أقل من عادية.

في البداية أخذت إميلي بمودة روبين ولطفها الظاهريين، فقد أمضت طفولتها في ظلال شقيقاتها، لذلك ابتليت بافتقارها الساحق للثقة بالنفس، ما أدى بها إلى اللحاق بروبين في أرجاء المكان كالجرو الصغير الذي يحاول يائساً إرضاء سيده. أخذت إميلي بنصائح المرأة الأكبر سناً في كل النواحي، بدءاً من الملابس وأدوات التبرج وصولاً إلى المشاكل الزوجية التي برزت بينها وبين لوك.

استغرقها الأمر وقتاً طويلاً حتى تدرك أن روبين هي السبب في العديد من تلك المشاكل. أقرت إميلي بتعاسة أنها لا تستطيع إلقاء اللوم بأكمله على روبين. إن عدم شعورها بالأمان بالإضافة إلى افتقارها إلى الثقة بالنفس لم يساعداها، تماماً كما لم يساعدها إدراكها المتزايد بأن جان لوك فايلون غير قادر على حب أي شخص. تعامل لوك مع شكوكها حيال طبيعة علاقته مع مساعدته الشخصية بتصرف ساخر فظ. قال لها إن الوقت حان كي تنضج وتكف عن التصرف كطفلة سخيفة. يومها تقبلت بأن لوك لم يشعر بأكثر من عاطفة خفيفة تجاهها، أما الآن فلم يعد لديها أي شك بأن دوافعه للزواج منها لم تتضمن الحب قط. استدارت إميلي متنهدة، فوجدت لوك يراقب جان كلود. بدا مستغرقاً تماماً، كما لو أنه غير قادر على إبعاد نظراته عن ابنه. لابد أنه أحس

بتفحصها له، فاحمرت وجنتاها عندما رفع لوك رأسه وأخضعها لتحديقه القاسي. أمرتها عزة نفسها أن تشيح بنظرها بعيداً، لكنها أُسِرت بالجاذبية الغامرة التي انبعثت منه، فارتكزت نظراتها على وجهه. فجأة بدا لها أن الجو داخل السيارة أصبح خانقاً، بالرغم من الهواء المنبعث من جهاز التكييف.

ضاقت عينا لوك وهو يراقبها فعلمت إميلي أن لوك يدرك ماهية أفكارها. ما خطبها؟ سألت نفسها بنفاد صبر. إنه يمقتها، وكراهيته لها واضحة تماماً في نظراته الرمادية الباردة التي أطلقها نحوها كالسهام. إنه يحتمل وجودها فقط من أجل ابنه، فلماذا تُراها تستهلك نفسها بهذا التوق الجامح إليه؟ إنها تكرهه، أما ذهنها فيرفض تماماً قوته العديمة الرحمة، لكن يبدو أن جسدها يعرف مراده جيداً.

سلخت إميلي نظراتها بعيداً عن لوك، وهي تطلق شهقة بالكاد تمكنت من إخفائها. عضت بقوة على شفتيها حتى أحست بطعم الدم في فمها. لوك رجل كاذب ومخادع، كما أنه فطر قلبها. عليها أن تتذكر هذا الواقع كي تتمكن من الحفاظ على ذاتها. طالبته قائلة: «لا تنظر إلي هكذا. أنت فقدت حق النظر إلي كما لو كنت ملكك، حين رفعت مستوى الخدمات التي تقدمها لك مساعدتك الشخصية».

– أرى أن قلة ثقتك السخيفة بنفسك ما تزال تعميكِ.

غمغم لوك بذلك ببرودة، وسرعان ما تلونت وجنتاها باللون الأحمر إذ أصاب بكلامه النقطة الحساسة.

لطالما كانت غير واثقة من نفسها، خصوصاً في ما يتعلق بلوك، كرهت إميلي حقيقة إدراكه لحساسيتها وضعفها في هذا المجال. أدارت رأسها بعيداً عنه بكل عزم، أما عيناه فاستقرتا على خدها وعلى أذنها الصغيرة الزهرية اللون، فيما أبرز قرط أذنها الطويل المتدلي عنقها الطويل النحيل. بدت إميلي فتية شابة بشكل يفطر الفؤاد، بسبب شعرها المرفوع والمربوط عند قمة رأسها، وقد أفلتت منه بضع خصلات لتلتف حول خدها، فقاوم لوك رغبته بأن يمد يده ويضعها خلف أذنها، ويقبض

على ذقنها بيده فيدير وجهها نحوه.

وبّخ لوك نفسه بسخط. ما الذي يفكر به؟ هذه المرأة هجرته من دون أن تنظر إلى الوراء. ليس هذا فقط، بل إنها اختفت بشكل نهائي حازم، مفسحة المجال للثرثرة والشكوك بأن تدور حولهما في أرجاء مجتمع لندن بقوة. أثناء تلك الفترة كان لوك مرتعباً خوفاً على سلامتها، وهو لا يدري إن كانت حية أم ميتة، أما هي فكانت طيلة هذه الشهور تعيش بسكون وراحة تامة في مخبئها الإسباني. أما اتهاماتها له بأنه لم يرغب بابنهما فهي مضحكة وسخيفة. لقد هزّه توقه إلى طفلهما بحدة، لكن المخاوف رافقت هذا الأمل خشية أن يعيد الماضي نفسه. إلاّ أن قلة اهتمامه الظاهرية كلفته غالياً!

استنشق لوك نفسه بحدة، فأجبر نفسه على إسقاط نظراته نحو الطفل الجالس بهدوء في كرسيه. جان كلود هو ابنه! ما زال غير قادر على التصديق بأن هذا الطفل الجميل الواسع العينين هو من لحمه ودمه. مع ذلك لم يكن هنالك مجال للشك أبداً بمدى الشبه بينه وبين الطفل. لامس لوك خصلات شعر الطفل الحريرية الناعمة بتعجب وإعجاب، ملاحظاً أنها ذات لون أسود كشعره تماماً. وحين رفع جان كلود أهدابه الطويلة السوداء، ليراقبه بوقار بعينيه الرماديتين الكبيرتين، بدا ذلك أشبه بالنظر في المرآة. هذا هو ابنه! الطفل الذي خشي ألا يراه أبداً. أحبه لوك على الفور، فأقسم أن لا شيء سوف يفصله عن ابنه مجدداً على الإطلاق.

- إنه يشبهك.

قالت إميلي ذلك بنبرة حاقدة، وهي تراقب جان كلود الذي يبتسم لوالده. منذ اللحظة الأولى التي فتح فيها ابنها عينيه، ذُهلت إميلي بمدى شبهه بلوك. بدا لها كأنما القدر نفسه يقف إلى جانب لوك، وكأنه عازم على عدم السماح لها بتناسيه. والآن عندما رأتهما معاً، أدركت أن الطفل ينتمي فعلاً إلى آل فايلون. إنه حقاً ابن أبيه!

راقب جان كلود الذي يبلغ الآن من العمر قرابة العام هذا الرجل

الغريب بوقار، وكأنه يعرف ما يريده، ويعرف من عليه أن يحب أو لا يحب، فأحست إميلي بطعنة حادة من الغيرة عندما مدّ الطفل ذراعيه المكتنزتين نحو لوك. هل سيخونها كل رجال آل فايلون؟ تساءلت عن ذلك بمرارة، إنها ترغب بأن تكون لجان كلود علاقة جيدة مع والده، وبدا لها الآن أن لوك يشاركها هذه الرغبة نفسها. لعلها تتمكن من فتح موضوع الطلاق مجدداً بعد أن يهدأ. إنها واثقة تماماً بأن لوك لا يريدها فعلاً زوجة له. إذا ما طمأنته، وأكدت له رغبتها في الحضانة المشتركة لجان كلود، فعلى الأقل ستكون أبوتهما له ودية. غمغمت قائلة: «جان كلود وأنا لدينا حجز على متن الرحلة المسائية المتجهة إلى لندن. من السخف أن نهدر ثمن التذكرتين، لكنني سوف أوافيك بأسرع ما يمكن... غداً إذا كنت مصراً».

أضافت إميلي جملتها الأخيرة لأن لوك لم يبدِ أي رد، بل راقبها ببساطة. قال بعد فترة من الصمت: «أنا لن آخذه إلى لندن».

حدقت به إميلي مرتبكة.

- إلى أين أنت ذاهب إذاً؟

لطالما كرهت إميلي شقة لوك في شيلسيا، فهي تمتاز بالفتنة نفسها التي تتميز بها غرفة الانتظار لدى طبيب الأسنان. لم تشعر إميلي قط أنها في منزلها، لكن لوك بدا مرتاحاً تماماً هناك، وافترضت هي أن هذا ما يزال مركزه في لندن. أعلمها لوك وقد رفع حاجبيه متفاجئاً من أي شك لديها: «إلى فرنسا، بالطبع. جان كلود هو من آل فايلون، إنه ابني ووريثي. من الطبيعي أن تتم تربيته في أرضه الأم».

ردّت إميلي بكلمات لاذعة: «من الطبيعي...؟ لكن ماذا عن أرضي الأم؟ ألم يطرأ ببالك بأنني قد أود أن أربيه في إنكلترا؟».

أشار لوك بصوت حريري قائلاً: «ليس هذا ما كنت تفعلينه، أليس كذلك؟ فأنت -ولسبب غريب- قررت أن مجتمعاً خاصاً بالفنانين في وسط البرية الإسبانية، هو أفضل مكان ليعيش فيه ابننا. لكن ليس بعد الآن. من الآن فصاعداً سوف يستمتع جان كلود بكل حسنات ومزايا

ميراثه في قصري الذي يقع في وادي اللوار. آل فايلون عائلة فرنسية قديمة العهد، وأنت حتماً لن تحرميه من حقه بالولادة!».

- أنا لم أكن أعلم حتى أنك تمتلك قصراً. هذا شيء آخر لم تذكره لي. لكن ماذا بشأن ميراث جان كلود البريطاني؟

هاجمها الهلع مرة جديدة لدى رؤيتها تعابير وجه لوك الثابتة العزم، ثم تابعت: «آل داير هم عائلة قديمة العهد أيضاً. كان هيستون غرانج مقرهم لما يزيد عن الأربع مئة سنة، إلى أن اشتريته أنت».

أنهت إميلي كلامها بوهن، لكنها عادت وقالت: «أخبرني! هل كنت تعرف منذ البداية أن والديّ كانا يأملان أن تتزوج إحدى بناتهنّ، لكي يستعيد آل داير بعض التواصل مع ميراث عائلتهم؟ هل عرضوا عليك هيستون غرانج بسعر زهيد شرط أن تتزوج بإحدانا؟ إذا كان هذا صحيحاً لوك، فلماذا بحق السماء اخترتني أنا، الشقيقة العادية المملة، فتاة داير السمراء اللون، الشبيهة بالأحصنة أكثر من شبهها بالناس؟ شقيقاتي جميلات، ذكيات ومتميزات، وأية واحدة منهنّ كانت لتصبح زوجة مناسبة لك أكثر مني. أفترض أنك ظننتني الأسهل مراساً بينهنّ لتتحكم بي، الشقيقة التي لن تحدث جلبة عندما تستأنف علاقتك مع عشيقتك».

كانت إميلي في العشرين من عمرها، فتاة خجولة تفتقر بشدة إلى الثقة بالنفس، فلم تقوَ على إخفاء إعجابها الهائل بالرجل الفرنسي الوسيم الغامض، الذي قلب حياتهم رأساً على عقب، لكن لابد أنها بدت بالنسبة إليه سهلة المنال، فكانت بمثابة ضمانة في لعبة.

تمتم لوك بنبرة جافة: «أنت... لطالما قللت من قيمة نفسك».

تفحصت عيناه وجهها المحمر وعينيها الزرقاوين، ثم تابع: «أقر أن هنالك عدداً من الأسباب التي جعلتك ملائمة...».

أنهت إميلي الكلام عنه قائلة: «... وكلها أسباب تتعلق بالمال والمركز، ولا علاقة لها أبداً بالحب».

لم ترغب إميلي بسماع كل تفصيل لسبب قراره بالزواج منها، فهي تعلم مسبقاً أن السبب هو أن والديها عرضا عليه هيستون غرانج بسعر

مخفض جداً إن تزوج بإحدى فتيات آل داير، وهكذا يستمر اتصال أفراد العائلة مع ميراثهم. أحست كما لو أنها مهرة معدّة للاستيلاد، بيعت مقابل مهر ملائم. لكن لوك لم يرغب بها حتى من أجل قدرتها على إنجاب الأطفال، فهو لم يرغب بالأطفال أصلاً، ما جعل تصميمه المفاجئ على استعادة حضانة ابنه أمراً مفاجئاً بالنسبة إليها.

كرّر لوك بعناد: «جان كلود هو أحد أفراد عائلة فايلون، ومن الآن فصاعداً سوف يصير قصر مونتيراد منزله لا ذلك المكان القذر».

- سان أنطونيا ليس مكاناً قذراً. إنه منزل ريفي جميل، وجان كلود أحب المكان.

ارتفع حاجبا لوك فيما غمغم متهكماً: «أحقاً؟ لابد أنه أعجوبة بين الأطفال، حتى يكون قادراً على التعبير عن رأيه وهو لم يبلغ السنة بعد. أخبريني، عزيزتي! ما الذي كنت ستفعلينه لو أنه مرض؟ إن أقرب مستشفى يقع على بعد أميال من سان أنطونيا. يبدو أنك لا تهتمين كثيراً بمصلحته».

ردّت إميلي بكلمات لاذعة ساخطة: «بينما أنت بالطبع خبير في مسألة رعاية الأطفال. جان كلود كان يتلقى عناية ممتازة تماماً، لكن ليس من السهل أن أكون أماً وحيدة، لذا شعرت بالامتنان للمساعدة التي قدمها لي أفراد تلك الجماعة».

أشار لوك بقوة: «أنت كنت أماً وحيدة باختيارك، لكنك لم تمنحني جان كلود خياراً على الإطلاق. أجبرته على أن يحيا مع أحد والديه فقط، كما حرمتني من أية علاقة معه. الآن جاء دورك أنتِ كي تعاني وتتعذبي».

ارتجفت إميلي لدى رؤيتها للمقت في نظراته. صرخت: «بحق السماء! ألا نستطيع أن نتصرف كالراشدين بخصوص هذه المسألة؟».

أطلق لوك ضحكة خشنة، ثم قال: «من المؤكد أنها ستكون المرة الأولى بالنسبة إليك حبيبتي. لكنني أخشى القول إنك دفعتني إلى حد جعلني أتخطى حدود التصرف بشكل عقلاني. الآن بما أنني حصلت

على ابني، فلا نية لدي على الإطلاق بأن أتخلى عنه».

بدأت السيارة تبطئ في المسير، فنظرت إميلي خارج النافذة. راحت تبحث فيما أصابها الرعب عن أية إشارات تدل على المطار، لكنها لم تجد شيئاً. عوضاً عن ذلك اتجهت السيارة عبر بوابات تؤدي إلى ما يبدو أنه مدرج للطائرات الخاصة، فقبض عليها الخوف المسبب للغثيان. كيف تراها استطاعت أن تنسى أن لوك يمتلك طائرته الخاصة؟ لم يكن هنالك ضوضاء أو طوابير عند مكتب حجز التذاكر، حيث أملت أن تحظى بفرصة لحمل جان كلود والهرب به خلسة. فقط طائرة لوك كانت جاهزة تنتظرهما على المدرج. حسناً! صرّح لها لوك بأنه مستعد لأن يأخذها إلى قصره من أجل مصلحة ابنه، لكنه لا يستطيع إجبارها على استئناف دورها كزوجة له. أتراه يقدر على ذلك؟

فجأة بدا لإميلي أن عزة نفسها سلعة يمكنها الاستغناء عنها مقابل الحصول على طفلها. حدقت نحو لوك متضرعة عندما توقفت السيارة، فتوسلته قائلة: «أرجوك! لا تفعل هذا. لا يمكنني أن أعيش من دون جان كلود، لكنني أيضاً لا أستطيع أن أعيش معك».

رد لوك ببرود: «حتماً، إذا كنت تتمتعين بأي ذرة إحساس بالإنصاف، لابد أن تري أنه حان دوري كي أحصل عليه الآن. جان كلود سوف يأتي معي إلى منزلي، معكِ أومن دونك».

صاحت إميلي وقد ارتفع صوتها من فرط الاحباط: «لكنك لم تكن تريده! منذ اللحظة التي علمت فيها بحملي، أوضحتَ لي تماماً أنك غير مهتم... بأي منا».

تابعت تذكره: «صرت تنام في غرفة أخرى، عندما تزعج نفسك بالقدوم إلى الشقة أصلاً، ولم تتدخل البتة بأمر حملي أو تبدي أي اهتمام. حتى إنك لم تحضر إلى المستشفى عندما أجريت الصورة الصوتية الأولى له».

صدمتها موجة من الذكريات: «ألديك أية فكرة على الإطلاق عن كيفية شعوري صباح ذلك اليوم؟ إن حقيقة كونك قد أمضيت الليل مع

روبين هو أمر لا يُغتفر، لكنني كنت ما أزال أظن... بل أملت أنك تهتم بما فيه الكفاية بطفلنا، ما قد يجعلك ترغب برؤية أول الصور له. جلست في غرفة الانتظار تلك وحيدة، محاطة بأزواج متحمسين سعداء، وصلّيت كي تحضر أنت».

همست إميلي بذلك بانكسار، ثم تابعت: «كل مرة كانوا ينادون فيها اسمي، كنت أسمح لامرأة غيري أن تدخل قبلي، إلى أن ذهب الجميع ولم يبقَ سواي. بقيت فقط أنا بمفردي مع ممرضتي التي أصبحت شديدة التعاطف معي، والتي حاولت أن تلقي مزحة عن الرجال لكونهم غير نافعين على الإطلاق في الالتزام بالوقت».

فركت إميلي عينيها بسخط، إذ كرهت أن يراها لوك وهي تبكي، ثم قالت: «لكنك لست من الذين لا يلتزمون بالوقت، أليس كذلك لوك؟ إنك بكل بساطة لم تأبه بالطفل ولا بي. لهذا السبب رحلت. علمت أنني أطلت فترة البقاء أكثر مما هو مرحب بي».

- هذا غير صحيح.

بدا لوك يقول هذا، أما وجهه فأظهر مشاعر رفضت إميلي أن تحاول حل لغزها الآن. صرخت: «بل هذا صحيح. أنا لم أكن بحاجة إلى دليل أكبر على عدم مبالاتك. كيف يمكنك أن تلومني الآن؟».

تمهل لوك وهو يفتح الباب... لطالما مرت لحظات خلال السنة الماضية أقنع فيها نفسه أنه يكرهها... أما الآن وهي تراقبه بعينيها الزرقاوين المعبّرتين، فقد بدت إميلي شابة بريئة تماماً مثل ذلك اليوم الأول، حين نظرت إلى الأعلى تحدق به، فأحس كأن سهماً اخترقه. أدرك لوك حساسيتها وسرعة عطبها، فأحس أن شيئاً ما يجذب قلبه.

أقر لنفسه أنه لم يكن دوماً بارعاً في التعبير عن مشاعره، فوخزه ضميره عندما تذكر كيف جعلته مخاوفه المكبوتة يبدو متوتراً وغير متواصل معها. طفولته تركت ندوباً عليه، وولدت لديه حذراً من الكشف عن مشاعره. في الواقع، هو لم ينسَ موعد الصورة الصوتية. يا إلهي! كان ليعطي أي شيء مقابل أن يكون موجوداً معها، لكن روبين

شتتت أفكاره. مزقه ذلك الأمر، وعندما تمكن من الاتصال بإميلي ليفسر الموقف، كانت قد غادرت للتو متجهة إلى المستشفى. أدرك أنه تأخر كثيراً، لكنه في تلك المرحلة لم يدرك مدى الأذى الذي سببه لها، كما أنها لم تمنحه أية فرصة ليقوم بالتعويض.

زمجر لوك وهو يخرج من السيارة قائلاً: «انتظري هنا ريثما أرى إذا كانوا مستعدّين. وظفت مربية كي تهتم بجان كلود. من الأفضل أن يتعرف إليها قبل أن نصعد على متن الطائرة».

أشارت إميلي بحدة: «إنه لا يحتاج إلى مربية. يمكنني أن أعتني به بشكل ممتاز تماماً بمفردي».

- يا إلهي! هل يجب أن تجادليني بخصوص كل شيء؟

كان لوك للتو قد بدأ يسير بخطوات واسعة عبر المدرج، فراقبته إميلي يرحل. راح الأدرينالين يجول في جسدها، عندما قرعت بأناملها على الفاصل الزجاجي في السيارة كي تستحوذ على انتباه السائق. هذه على الأرجح سيارة مستأجرة، ومن المحتمل أن السائق إسباني. تكلمت مع السائق بنبرة واثقة لا تقارن بالخوف الذي يتلوى في قعر معدتها، إذ قالت له: «انطلق بالسيارة، أرجوك!».

الأشهر التي أمضتها في إسبانيا جعلتها تتحدث اللغة الإسبانية بطلاقة. ابتسمت للسائق، ثم تابعت: «حصل تغيير في المخطط. السنيور فايلون يود منك أن تعود وتقلني إلى المطار الدولي».

التمعت عينا السائق اليافع السوداوان بإعجاب لم يقم بأي مجهود لإخفائه وهو يرد لها الابتسامة قائلاً: «حاضر، سيدتي».

تحركت عجلات السيارة إلى الأمام، فاستنشقت إميلي نفساً حاداً، وقالت: «بأسرع ما يمكنك، أرجوك!».

لكن الأوان فات. لابد أن لوك تحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء، إذ عاد ليفتح الباب بقوة.

- أيتها العاهرة الصغيرة!

شتمها بوحشية، فيما أظهر وجهه السخط الشديد والهيجان. صرخ

بالسائق كي يطفئ المحرك، وبسرعة حلّ حزام الأمان الخاص بجان كلود، فحمله بين ذراعيه بينما التفت أنامله حول ذراع إميلي، وزمجر قائلاً: «كنت مستعداً لأكون منصفاً، وأعاملك باحترام من الواضح أنك لا تستحقينه. لكن ليس بعد الآن».

- هل كل شيء على ما يرام، سيد فايلون؟

بدت المرأة الواقفة عند أسفل درج الطائرة هادئة وعملية في بذلتها الرمادية. افترضت إميلي أنها المربية التي استخدمها لوك.

- هلاّ أخذت الطفل؟

نقل لوك الطفل إلى ذراعي المرأة، وما لبث أن أعاد انتباهه نحو إميلي، أما عيناه فبدتا غامضتين وخاليتين من العاطفة، وهو يراقب دمعة منفردة تتدحرج نزولاً على وجه هذه الأخيرة.

- لا يمكنك أن تفعل هذا.

همست إميلي بذلك حين شدها لوك إلى ذراعيه. وبّخها قائلاً: «راقبيني!».

وقبل أن تدرك نواياه، كان رأسه قد حجب عنها نور الشمس. لم يكن ذلك عناقاً بمقدار ما هو وصمة عار علنية. بدا عناق لوك وحشياً قاسياً. شعرت إميلي بالصدمة إلى درجة أنها استندت إلى صدره بكل بساطة إذ خشيت أن تخذلها رجلاها تحتها. بدا إذلالها تاماً عندما أجبرت على التعلق به طلباً للدعم. بدا ذلك العناق سريعاً بمقدار ما هو وحشي، إذ أفلتها لوك وهو يطلق شتيمة فظة، بينما حدقت إميلي إلى الأعلى نحوه. غطت وجهها بكفيها لبضع ثوان وجيزة، إذ تجاوب جسدها على الفور مع جاذبيته الفطرية، أما خداها فاحترقا خزياً وخجلاً. إنه يعلم مدى التأثير الذي يتركه عليها! خلال هذه الثواني القليلة جعلها تنسى كل شيء، حتى ابنها.

- ارفع يديك عني.

طالبته إميلي بذلك فيما بدا صوتها مرتعشاً، فرمى لوك رأسه إلى الخلف ضاحكاً.

- إنك ممثلة بارعة. أقر لك بذلك. لكن لا يمكنك خداعي، عزيزتي. أنا أعرفك حق المعرفة، وأتذكر بوضوح تام ما الذي يرضيكِ. أهلاً بعودتك يا زوجتي الحلوة.

وضع يده خلف ظهرها، ودفعها صعوداً على الدرج نحو الطائرة المنتظرة.

٣ - زوجة في الأسر

ما الذي فعله بحق الجحيم؟

حدّق لوك نحو فنجان القهوة الموضوع على الصينية أمامه، ثم غمغم بشتيمة، قبل أن ينتزع الفنجان ويشرب محتوياته بجرعة واحدة. الآن بالذات هو يحتاج إلى شرب شيء ما يجعله يستفيق من ذلك الخدر الذي تتركه فيه إميلي، والذي لطالما كانت تتركه على حواسه. أقرّ لوك بذلك حاقداً، بالرغم أن إميلي بدت غير مدركة أن مشاعره تنحرف بخطورة لتخرج عن سيطرته.

جلست إميلي بعيدة عنه في مقدمة الطائرة، وهي ترضع جان كلود الذي أبدى عدم إعجابه بمحيطه الجديد. المربية التي وظفها لوك تدعى ليز كراوفورد، وهي تتمتع بسجل مؤثر في مجال رعاية الأطفال، لكنها لم تتمكن من تهدئة الطفل، إذ لم يهدأ صراخه إلا حالما صار بين ذراعي والدته.

- إنه يحتاج إلي.

ألحّت إميلي في قول ذلك، وأدرك لوك الآن وهو يراقب الأم وابنها أنها على حق. احتضنت إميلي جان كلود، وراحت تؤرجحه بلطف، وهي تغني له بصوتها الناعم. أحس لوك بالتواءات غريبة في أحشائه، ما إن سمع التهويدة الفرنسية المألوفة، التي استحضرت ذكريات خاصة به تتعلق بطفولته. أقر بكآبة أنه ما كان يجدر به أن يعانقها. ما كان يجدر به أن يستسلم لحاجته الأساسية، بأن يحتضنها بين ذراعيه من جديد. إنه بحاجة إلى السيطرة أكثر على نفسه، وإلى أخذ الأمور بروية، كي يقنعها أن عودتها إليه هي الأفضل لمصلحتهم جميعاً، وليس فقط

www.elromancia.com

لأجل الطفل.

كان لوك قد أقنع نفسه أنه يمتلك كل الحق بأن يكرهها، لكن ما إن عبر الباحة الخارجية لسان أنطونيا، حتى خسر المعركة. إميلي حرمته من السنة الأولى من حياة ابنه، وحين استلم إخطاراً من المحامي يقول إنها تطلب الطلاق، شعر أنه مستعد لارتكاب جريمة. كان قد أقنع نفسه أنه لا يمانع إن لم تعد إميلي راغبة بأن تكون زوجته، لأنه اكتفى من انتظارها كالمخبول، وهو لا يريد استعادتها. لكن لسوء الحظ، ما إن وقعت عينا لوك على إميلي، حتى علم أنه ما عاد قادراً على ردعهما. إنها متغلغلة في دمائه، وهو ما زال يريدها. علم على الفور أنه لا يستطيع التخلي عنها، لكن وميض الخوف الذي ظهر في عينيها عندما لمحته لأول مرة هزّه بقوة. إنه لم يكن يوماً وحشاً مخيفاً، أم بلى؟ الارتباك هو الذي غمره حين حدّق بها وليس الغضب، أما الجريمة الوحيدة التي ارتكبها فهي خوفه على سلامتها. اللعنة! إنه ما زال يرغب بها، لكنه عازم على أن يكتشف السبب الحقيقي لهجرها له، قبل أن يثق بها مجدداً. واسى لوك نفسه محاولاً الاقتناع أن الأمر ليس أكثر من انجذاب حسي. الجاذبية الحادة التي نشأت بينهما منذ لحظة لقائهما الأولى ما تزال مشتعلة لديهما معاً. هو ليس أعمى، فقد لاحظ نظراتها إليه في السيارة، وهو يعلم أنها أحست بالمشاعر البدائية نفسها، وحين عانقها أحس بتجاوبها على الرغم من جهودها في إخفاء ذلك.

حسناً! ربما يمتلك كامل الحق ليمقت إميلي، لكن الحقيقة التي لا يستطيع النطق بها هي أن إميلي سرقت قلبه قبل فترة طويلة من سرقتها لطفله. كره لوك قدرتها تلك على التأثير به، لكن رؤيتها مجدداً أجبرته على تقبل حقيقة أن حياتيهما متصلتان إلى الأبد.

هدأ نشيج جان كلود تدريجياً إلى أن غفا، فناولته إميلي مترددة للمربية، التي تولت الاهتمام به. لم تعلم إميلي ما الذي عليها أن تفعله، فنظرت حولها، ثم تجهّمت عندما أومأ لها لوك كي تنضم إليه.

- لماذا غنّيتِ له باللغة الفرنسية؟

سألها لوك ذلك عندما انزلقت على المقعد إلى جواره، أما التعابير المرتسمة في عينيه فبدت غامضة وهو يتفحص وجهها الصغير الناعم.

- أملت أن يتعلم اللغتين الإنكليزية والفرنسية.

فسّرت إميلي للوك ذلك، فيما تورد خداها. ثم تابعت: «أحد الفنانين في سان أنطونيا كان فرنسياً. علّمني بعض الترنيمات لأغنيها له».

عضت شفتها لدى رؤيتها قساوة وجه لوك غير المتسامح. تابعت بصوت أبح: «أنا صدقاً... اعتقدتُ أنك لا تريده، لكنني ما انفكّيت آمل أن تتاح لك الفرصة حتى تقابله. أنا أريد أن يعرف جان كلود أباه، وكنت سأخبر محاميّ أنه يسرني أن نتشارك في حق الحضانة».

سألها لوك بنفاد الصبر: «لماذا إذاً اختبأت في إسبانيا؟».

تنهدت إميلي قبل أن تجيب: «توعكت صحتي بعد ولادة جان كلود. كانت ولادة عسيرة، ولزمني وقت طويل من الزمن لأتعافى. كنت أقيم في شقة صديقتي لورا، بينما قامت هي بتأسيس مدرستها لتعليم فن الطهو في سان أنطونيا، ودعتني إلى إسبانيا كي أستعيد عافيتي. هناك قمت بمساعدة لورا، ومرّ الوقت بسرعة...».

زمجر لوك قائلاً: «ما الذي تقصدينه بالولادة العسيرة؟ هل تقولين لي إنك واجهت صعوبات في الولادة؟».

- كان مخاضاً طويلاً دام ثمانية وثلاثين ساعة. كان الطفل كبير الحجم، وخسرت الكثير من الدم.

أقرت إميلي بذلك، فشحب وجه لوك بينما قاوم ليسيطر على الغثيان الذي اكتسحه. كان يجدر به أن يكون هناك. كان يجدر بإميلي أن تمنحه الفرصة كي يدعمها خلال مخاضها، لكنه كان قد دفعها إلى الهروب. إنها زوجته، أي المرأة التي أقسم على أن يحميها. لكن... مجدداً يبدو أنه فشل في تأدية واجبه.

غمغم لوك بوحشية محاولاً إخفاء ألمه: «لو أنك بقيت معي، لتلقيتِ أفضل عناية متوفرة. ما كنت بحاجة لأن تعاني، لكنك وبسبب

رغبة سخيفة لإيذائي، لم تجازفي بحياتك فقط بل أيضاً بحياته».

حدّقت إميلي بزوجها، وهي تقول: «إيذائك... أنا؟ عندما ذكرت لك موضوع إنشاء عائلة، أصريت على أنك لا تريد أطفالاً. أخبرتك أن حملي بجان كلود حصل عن طريق الخطأ، إذ يبدو أن الأدوية المضادة للالتهابات التي وُصفت لي تعارضت مع أدوية منع الحمل، لكنك رفضت أن تصدقني. أتذكر كم بدوت غاضباً حين أخبرتك أنني حامل. هذا ليس أمراً يمكن أن تنساه عروس جديدة».

أضافت إميلي عبارتها الأخيرة بنبرة ملؤها الألم.

انفجر لوك قائلاً: «بحق السماء! كنا في شهر عسلنا، وأنت لم تخبريني بالأمر. انتظرتِ حتى أصبحنا على جزيرة نائية في وسط المحيط الهندي... ثم انهرتِ. أما من أعلمني فهو مسعف الطوارئ الذي انتقل جواً من البر الرئيسي إلى هناك».

لم يقوَ لوك على كبح ارتعادة ألمّت به، إذ عاش مجدداً ذكرى تلك اللحظة، حين رفع جسد إميلي الضعيف الواهن بين ذراعيه، فركض بها على الشاطئ، وهو يصيح باهتياج شديد طلباً للنجدة. بدا له كأن ذلك يحصل من جديد. اعتقد حقاً أنه على وشك أن يخسرها، وبدا ذلك الشعور مدمراً تماماً، قبل إدراكه لمدى اهتمامه لأمرها. لم يقوَ لوك على تحمل فكرة متابعة حياته من دونها. إنه ليس قوياً بما يكفي كي يتحمل عذاباً مماثلاً، حتى بعد أن اتضح له أنها ليست في خطر، لذلك تراجع منطوياً على ذاته.

- لم أكن أعلم أنني حامل. كان الأمر بمثابة صدمة بالنسبة لي، تماماً كما بدا بالنسبة إليك.

غمغمت إميلي ببؤس، لكن لوك استدار مبتعداً عنها وهو يطلق شتيمة وحشية، ثم فتح كمبيوتره النقال وانغمس في عمله.

فكرت إميلي بسوداوية أنه لا يرغب بمناقشة الماضي. لعله يشعر بالذنب حيال أسلوب معاملته لها. حسناً! هي ليست متأكدة، وليس عليها أن تأبه. هي تعلم من خبرتها أن لوك يمقت أي إزعاج وهو

يعمل، لذا حدّقت بكآبة خارج النافذة.

غمرت ذهن إميلي ذكريات لقائها الأول مع لوك. لا بد أنها كانت الوحيدة في عائلة داير التي نسيت حفل العشاء الذي أقيم من أجل تكريم المنقذ المحتمل لهيستون غرانج. أسرعت عائدة من الإسطبلات منتعلة جزمتها الملطخة بالوحل. توقفت وكادت تتعثر وهي تشعر بالاحراج المؤلم لرؤية شقيقاتها الأنيقات ووالدتها التي تغلي غضباً في المنزل. سرعان ما تلاشى كل ما حولها، وصار بغير ذي أهمية عندما لاحظت بطرف عينها جان لوك فايلون للمرة الأولى.

فكرت إميلي، أنها فعلاً أحست كأن العالم توقف عن الدوران. تذكرت كيف قبضت بسرعة على مسند الكرسي لتدعم نفسها، فيما حدق لوك إليها بنظراته الرمادية الباردة. بدا لها أنه أكثر الرجال الذين قابلتهم جاذبية على الإطلاق. لم تقوَ إميلي على كبح ارتعاشة سرت في جسدها عندما أسر نظراتها المذهولة بعينيه، ما أنبأها أنه أدرك مدى التأثير الذي تركه عليها. بعدئذٍ لاحظت إميلي نفاد صبر والدتها، فأسرعت إلى الطابق العلوي كي تبدل ملابسها. يومها، أمضت الأمسية بأسرها تسترق النظر إلى لوك من وراء أهدابها، بينما تركت شقيقاتها ليؤثرن عليه بحديثهن الحذق.

بدا لوك رجلاً لا يقاوم، بمظهره الوسيم وسحره الطاغي، وعرفت أنه رئيس شركة فايلون للتنمية. بالرغم من محاولات شقيقاتها لأسر اهتمامه، إلا أن إميلي رفعت نظرها عدة مرات خلال العشاء فوجدت لوك يراقبها. أخفضت بصرها بسرعة بسبب شعورها بالإحراج، لكن لوك استمر بمراقبتها طيلة الأمسية.

- ينتابني شعور أنك تشعرين بسعادة أكبر حين تكونين برفقة الأحصنة.

أبدى لوك ملاحظته تلك لإميلي عندما ظهر فجأة في الإسطبلات. كان قد وافق على اقتراح والديها بأن يبقى في هيستون غرانج، ليتناقشوا في المخططات المتعلقة بحيازته المحتملة لهذا المكان. يومها شعرت

إميلي بالخجل الشديد. لكنة لوك الفرنسية الأبحة سببت ارتعاشة، سرت نزولاً على طول جسدها وصولاً حتى أخمص قدميها. احمر وجه إميلي خجلاً، فأخفت وجهها جزئياً خلف عُرف الحصان العربي العزيز المدعو قاسم.

- أنا أجد الأحصنة بشكل عام أقل تعقيداً من البشر.

ردّت إميلي موافقة رأيه. استمر لوك بالثرثرة معها لبضع دقائق مظهراً معرفة واسعة مؤثرة بالفروسية، مع ذلك ظلت إميلي قليلة الكلام، كما لو أن لسانها معقود. إلا أنها عادت وغضبت من نفسها كثيراً، وهي تفكر أنها بالتأكيد بدت حمقاء حينها. لكنها فوجئت عندما جاء لوك مجدداً في اليوم التالي، وفي اليوم الذي يليه، ليقترح عليها أن يمتطيا الأحصنة سوياً. خلال هذه النزهات السعيدة عبر الغابة الجديدة، وجدت إميلي نفسها تقع في غرام لوك.

فكرت الآن بمرارة أنها كانت حمقاء حقاً، كي تصدق أن الملياردير الفرنسي ذا الشخصية القوية هو فعلاً مهتم بفتاة عادية عديمة الشأن مثلها. حذرها تفكيرها من أن لوك يمتلك مفكرة خفية تحمل نوايا سرية تجاهها، خصوصاً عندما عرض عليها الزواج بعد فترة وجيزة من لقائهما الأول، لكن إميلي تجاهلت شكوكها، سامحة للوك بالتقرب منها ومعانقتها عندما كان يلحق بها إلى داخل الإسطبلات. أحبت المشاعر التي ولّدها لوك في داخلها، وأحبته. أما المدهش في الأمر فهو أنه بدا وكأنه يرغب بها أيضاً بدوره.

تم زواجهما الشبيه بقصص الجنيات على أراضي هيستون غرانج الرائعة، وبدا كأنه حلم يتحقق. استمر الحلم طيلة نهاية ذلك الأسبوع الأول، حين انتقل بها لوك إلى باريس. كانت إميلي ما تزال عذراء حتى ليلة زفافهما الأولى. إن ذكرى علاقتهما الحميمة الأولى ما تزال تجلب الدموع إلى عينيها. بدا لوك غاية في الرقة واللطف، فعاملها بتبجيل، أما لطفه معها فأفسح المجال أمام شغف حاد كان يجدر به أن يصدمها، لكنه فقط جعلها تحبه أكثر فأكثر.

لسوء الحظ، كان وصولهما إلى لندن إشارة إلى نهاية الحلم الخيالي. غدا لوك منشغلاً على الدوام مع روبين، وكرهت إميلي العلاقة المقربة لتلك المرأة الأميركية الأنيقة مع زوجها، تماماً مثلما جاهدت كي تتأقلم مع حياتها الجديدة. كثرت المشادات بينها وبين لوك، كما تضاعفت قلة ثقتها بنفسها، لكن بعد مرور ستة أشهر على زفافهما أعلن لها لوك فجأة أنه سوف يأخذ إجازة من برنامج عمله المكتظ، وسوف يأخذها في شهر عسل متأخر. أملت إميلي أن يكون ذلك هو الوقت المثالي لسد الثغرات الموجودة في زواجهما، لكن عوضاً عن ذلك ازداد شعورها بالغثيان الذي كانت تعاني منه خلال الأسابيع القليلة الماضية. لدى وصولهما إلى الجزيرة النائية التي يقصدانها، أُغمي عليها. أعلمها الطبيب يومها بابتهاج أنها تنتظر مولوداً، إلاّ أن نظرة واحدة إلى وجه لوك المصدوم حذّرتها بأن القصة الخرافية الخيالية انتهت، إذ وقع عليه الخبر كالقنبلة.

- سوف تحط الطائرة خلال ساعة.

أعلمها لوك فجأة بذلك، فقاطع أفكارها بنبرته الباردة المقتضبة. بالكاد أزعج نفسه بأن يرفع نظراته عن شاشة الكمبيوتر وهو يخاطبها قائلاً: «أنا واثق من أنك تذكرين الطريق إلى الحمام».

ردّت إميلي وقد وخزتها لا مبالاته: «أنا لست بحاجة إلى استعماله. شكراً لك».

هذه المرة لم يرفع لوك نظره، بل رفع حاجبه قليلاً بازدراء.

قال لها بفظاظة وعدم إحساس: «أنت بحاجة لأن ترتبي نفسك قليلاً».

لم يتأثر بلطخة اللون الذي فاض على خدّيها، إذ تابع: «سوف تجدين أغراضك في غرفة النوم. آمل أنك تمتلكين ما ترتدينه في تلك الحقيبة الكبيرة، بحيث يكون غير صارخ كملابسك هذه».

قالت إميلي بحلاوة بينما رفعت ذقنها: «أخشى أنني لا أملك شيئاً من هذا النوع. الحقيبة الأكبر تحتوي على ملابس جان كلود، أما هذه

فهي إحدى ملابسي الأكثر حشمة».

قال لها لوك بهدوء: «إذاً نحن بحاجة لأن نذهب للتسوق في أقرب وقت ممكن. قد تكون ملابسك الزاهية ملائمة لمجتمع من الفنانين، لكنك لست من الهيبيين... أنت زوجتي، وأنا أتوقع منك أن ترتدي ملابس تتوافق مع هذا الدور».

- يمكنك أن تذهب إلى الجحيم. أنا أفضل أن أركض عارية بدلاً من السماح لك بشراء ملابس لي.

التوى فم لوك التوى في ابتسامة وقحة ما زالت تفعل أشياء غريبة بأحشائها: «إنها لفكرة مشوقة حين نكون بمفردنا، لكنني لا أعتقد أن سكان قرية مونتيراد الهادئة مستعدون لتقبل تصرف كهذا».

شبكت إميلي ذراعيها أمام صدرها، متمنية لو أن باستطاعتها مسح تلك السخرية عن وجه لوك. غاصت ثقة إميلي بنفسها إلى الأعماق، فذبلت وجبنت أمام نظراته الكريهة. في الواقع، كانت شديدة الانهماك في مساعدة لورا في أعمال المزرعة إلى درجة جعلتها تستعيد رشاقتها التي كانت عليها قبل الحمل، من دون أن تلحظ ذلك حتى، أما الاهتمام الذي حظيت به من بضع فنانين في سان أنطونيا فجاء بمثابة دفع مرحب به لمعنوياتها. لكن لوك محاط على الدوام بنساء جميلات يبدون أنيقات بلا مجهود، لذا أحست إميلي أنها تبدو عادية المظهر مثل أول مرة التقته فيها. طرفت عينيها بسخط لتتخلص من تسارع الدموع المفاجئ فيهما، وهي تدرك أن لقاءها الجديد بلوك لا يشبه بتاتاً أحلام اليقظة التي راودتها. لطالما حلمت بلقائه صدفة في حفلة متألقة ما، وتصورت نفسها جذابة بشكل صاعق، فيما يرافقها صديق موازٍ لها في الوسامة والروعة، أما لوك فتخيلته ينظر إليها، ويلعن نفسه لأنه تركها ترحل. بالطبع، هذا الحلم أحمق وغير واقعي البتة، خصوصاً ذلك الجزء المتعلق بالصديق، فالرجل الوحيد الذي أرادته إميلي يوماً هو غير مبال بها، تماماً مثلما كان حينما هجرته. قالت له بصوت جليدي: «أنا لست أنوي البقاء في قصرك ليوم أكثر مما هو ضروري، وأنا حتماً لن

أمضي أي وقت معك. لذ يمكنك أن تنسى فكرة مشاركتي لسريرك. لا يمكنك إجباري على البقاء».

أضافت ذلك وهي تدرك أنها لسبب ما رغبت بتحريضه، ربما لأن الجدال قد يضمن لها نيل انتباهه.

- أتظنين ذلك حقاً؟

بدا غير متأثر مطلقاً بغضب إميلي، أما لمحة الاستمتاع البادية في صوته فجعلت أعصابها تشتعل.

عنّفته إميلي ساخرة: «ما الذي تنوي فعله؟ هل ستحتجزني في برج عاجي، بينما تطوف أنت العالم في التزامات عمل لامتناهية؟ لعلك ستعود إلى المنزل يوماً، فتجدني قد رحلت وأخذت جان كلود معي».

- لو كنت مكانك لما جرّبت ذلك، لأنني أقسم أنني سوف أطاردك وسوف أجدك، وعندما يحصل ذلك ستتمنين لو أنك لم تعانديني قط.

أدركت إميلي وقد انتابتها ارتعادة بسبب التهديد المضمر في صوته، أن لوك جدّي في ما يقوله. لقد أوضح لها بكل بساطة أنه سوف يصطحبها إلى فرنسا لأن جان كلود يحتاج إليها، لكن يبدو أنه ينوي احتجازها كسجينة هناك.

غمغمت شيئاً بخصوص حاجتها إلى الاغتسال، ثم قفزت على قدميها. ما زالت تذكر تماماً موقع غرفة النوم المترفة وغرفة الحمام الملاصقة لها. تعثرت وهي تسير في الرواق المؤدي إليهما. أحست بحاجة ملحة كي تبقى بمفردها، ريثما تستوعب الأحداث التي تجري معها. ارتجفت لرؤية السرير المزدوج الضخم الواسع الذي ذكرها بأوقاتهما الحميمة أثناء سفرهما. حصل ذلك منذ زمن بعيد، قبل أن يدخل الفساد حياتهما، ويسمم علاقتهما. ذكّرت إميلي نفسها بأنها تكرهه، فيما قذفت المياه الباردة على وجهها وأفلتت شعرها من الشريط الأصفر، بحيث انسدل كالحرير نزولاً على ظهرها. لِم أزعجت نفسها بالتكلم معه؟ هي تعلم أن ذلك أمراً غير مجد حين يكون مزاج لوك معكراً.

ما الذي يحصل لها؟ تساءلت إميلي ببؤس. أين هي المرأة القوية الواثقة التي اكتشفت قيمة نفسها وسط فناني سان أنطونيا؟ منذ بضع ساعات فقط كانت تدير دفة حياتها. كانت مستعدة للبحث عن لوك لتقدم له فرصة بناء علاقة مع ابنه، وفجأة صار هو المسيطر.

خرجت أميلي من الحمام لتجد لوك جالساً على السرير، وقد أسند ذراعيه إلى جانبيه فيما راح يراقبها كما لو أنه سلطان يتفحّص خليلته الأخيرة. كان قد تخلص من سترته، وفك أزرار قميصه عند العنق. أغمضت عينيها للحظة، متذكرة آخر مرة رأته فيها ممدداً على ذلك السرير. فكرت بهلع أنها لا تقوى على تذكر ذلك. قالت له ببرود: «أنا أقدّر بعض الخصوصية. ما الذي تريده؟».

ردّ لوك بنعومة فائقة: «ربما أريد أن أبرهن وجهة نظري، أو ربما السبب هو أنني غير قادر على البقاء بعيداً عنك».

أضاف ذلك بضحكة خشنة.

- أنت تتكلم بالألغاز.

قالت إميلي ذلك وهي تقترب من السرير بغير تيقظ، إذ انجذبت إليه كما تنجذب الفراشة إلى الضوء الباهر. فجأة انطلقت يد لوك لتقبض على رسغها.

- لماذا هجرتني؟

فوجئت إميلي بسؤال لوك، لكنها فوجئت أكثر حين جذبها لتجلس إلى جانبه.

- أنت تعرف السبب.

غمغمت أميلي ذلك وهي تحاول الهروب. وقد بدأت تشعر بدفء جسده، فتحركت بعدم ارتياح. استطاعت وهي بهذا القرب منه أن تلاحظ الخطوط الدقيقة حول عينيه، والظلال الخفيفة على فكه...

- أريدك أن تنطقي بذلك.

قال لوك ذلك، لكن قبضة يديه على خصرها كذّبت اللطافة في صوته، فابتلعت إميلي ريقها بتوتر.

- سئمت إذلالك لي.

أجفلت إميلي عندما انغرزت أنامله في بشرتها، وزمجر بوحشية: «متى أذللتك؟ أنت من هجرتني من دون أية نظرة إلى الخلف. ألديك فكرة عما كانت عليه حياتي بعد أن اختفيتِ بذلك الشكل المفاجئ؟».

طالبها لوك متابعاً بصوت جليدي: «في لحظة كنا مثال الزوجين السعيدين، وكنا ننظر قدماً إلى موعد ولادة طفلنا الأول، وفي اللحظة التالية اختفيتِ تاركة ملاحظة مختصرة تقولين لي فيها إنك ستهجرينني من دون أي تفسير آخر، ولا أي تلميح عن موعد عودتك، هذا إذا كنت تنوين العودة أصلاً. ومع مرور الأسابيع، أصبح من الواضح أن لا فكرة لدي إطلاقاً عن مكان وجودك».

ولأول مرة بدأت إميلي تقدّر مدى غضبه وسخطه. غمغمت قائلة: «كان بإمكانك أن تخبر الناس أنني أزور عائلتي في هامبشاير».

لاقى كلامها نظرة ساخرة من قبل لوك، الذي قال لها بمرارة: «إن أنانيتك لا حدود لها، فأنت لم تفكري حتى بعائلتك. أليس كذلك؟ لم تفكري للحظة أنهم سيشعرون بقلق بالغ تجاهك».

أقرت إميلي: «والدتي كانت تعلم أن زواجنا يواجه مشاكل. أخبرتها أنني ذاهبة لأقيم مع أصدقائي لبعض الوقت، ولم يسرّها ذلك كثيراً. حذّرتني أنه لا يسهل إيجاد زوج مليونير مثلك. من الواضح أنه ليس مستغرباً أن يلهو الرجال قليلاً بينما تكون زوجاتهم حوامل».

أضافت إميلي ذلك وهو تلقي باتجاهه نظرة ازدراء. بعدئذٍ تابعت: «كان لدي برهان متين بأنك أمضيت الليل مع روبين. وكنت قد سئمت خداعك لي، وعلمت أنني غير قادرة على البقاء معك، لدقيقة أخرى».

- أنا لم أقم علاقة معها قط. الأمر بأسره كان من صنع مخيلتك.

لكن إميلي لن تسمح له أن يخيفها بسبب وميض اللهب البادي في عينيه. ردّت بحرارة وهي تقاوم طعنة الألم التي ما زالت تسببها تلك الذكرى: «أمضيت الليل معها عندما عدت من أستراليا. اتصلت بمدبرة المنزل لتقول إنك أخّرت رحلتك لمدة عشرين ساعة، لكنني لم أتلقَ

الرسالة قط، فذهبت إلى المطار لألاقيك. أنا رأيتك لوك... رأيتك وروبين. أنت لم ترني، لكنني لست غبية. كنت تلف ذراعك حولها، وبدا واضحاً جداً أنك كذبت بخصوص تغيير موعد الرحلة لكي تمضي ليلة إضافية برفقتها».

- ألهذا السبب هجرتني؟ جعلتني أخسر متابعة السنة الأولى من عمر ابني بسبب اختلاط الحقائق بشأن الرحلات؟

عدم التصديق البادي في صوت لوك جعل إميلي تحاول النهوض من جانبه، لكن قبضته اشتدت على الفور ممسكة بها.

- هناك أسباب دعتني إلى الكذب بخصوص موعد عودتي إلى المنزل.

قال لوك ذلك بضيق، وهو يحاول بذل مجهود ضخم ليتحكم بغضبه، ثم تابع: «إنها أسباب كنت لأفسرها لك لو أنك منحتني الفرصة، لكنك عوضاً عن ذلك انطلقتِ هاربة كالطفلة غير الناضجة. أخذت ابني، وجعلتني أختبر أشهراً من الجحيم، وما زلت تتساءلين عن سبب شعوري بالغضب؟».

بدا لوك كأنه على وشك أن ينفجر، لذا أجفلت إميلي من عدوانيته الملموسة. تذمرت بعناد قائلة: «أنا واثقة مما رأيته، فأنت تتشارك مع روبين بتقارب يستثني أي شخص آخر، بمن فيهم أنا».

- إنها زوجة شقيقي. أنا أعرفها منذ سنوات، وأقر أنني معجب بها. عانت روبين الأمرين عندما قُتل إيف. ليس فقط لأنها كانت تقود السيارة، بل أيضاً لأنها لامت نفسها على الحادث.

قبض لوك على ذقنها بحيث أجبرت على النظر إليه، فصدمها الوميض المتوحش الحاد في عينيه. إنها المرة الأولى التي يتحدثان فيها بشكل واضح وصريح عن روبين، وهي المرة الأولى التي أصغى فيها أي منهما بشكل فعلي إلى الآخر. سمحت إميلي لشكوكها بخصوص علاقة لوك مع مساعدته الشخصية أن تغلي بموجة هادرة من الاتهامات الهائجة، إلى درجة أن لوك رفض أن يبجل تلك الاتهامات برد ما.

عوضاً عن ذلك، انسحب واختلى بنفسه، فعامل إميلي بازدراء جليدي إلى درجة أن إميلي أخذت ترتعد خوفاً بينما تضاعفت قلة ثقتها بنفسها.

- أقسم لك إنني لم أخنك قط، لا مع روبين ولا مع أي امرأة أخرى.

الحدّة الواضحة في صوته كوّنت فقاعة صغيرة من الأمل الذي بدأ ينمو في صدر إميلي. أيعقل أنه يخبرها الحقيقة؟ أتراها أساءت قراءة الإشارات التي اعتقدت أنها تشير إلى إدانته؟ لطالما اعتقدت أن لوك سوف يسأم منها، فراحت تبحث عن دليل لكونه ندم على الزواج بها. أتراها تسرّعت في تصديق خيانته المفترضة، وأخذتها ذريعة لتهجره قبل أن يسأم منها؟ إذا كان ذلك صحيحاً، ألم تحرمه من مرافقة ابنهما في سنته الأولى بسبب غرورها؟

لم تكن تلك فكرة مريحة. تحركت إميلي في مكانها، ثم تمنّت لو أنها لم تفعل ذلك، لأنها كانت قريبة جداً منه. بدا من الصعب عليها أن تفكر بشكل سليم في حين أن أحاسيسها مخدرة بعطر ما بعد الحلاقة برائحة المسك الذي يستخدمه لوك.

- ماذا عن تلك الليلة التي أمضيتها في شقتها؟ أعلم أنك كنت معها.

طالبته إميلي بحدة، فهي ما زالت غير قادرة على تقبل حقيقة أنها كانت مخطئة طيلة هذه المدة.

- ذلك صحيح. أمضيت طيلة الليل محاولاً أن أنام على أريكة مصممة لشخص قزم، وأنا أعدّ الساعات التي تفصلني عن عودتي إلى المنزل. لم أنسَ أن موعد الصورة الصوتية في وقت لاحق من ذاك النهار. بالرغم من اتهاماتك لي، فأنا كنت متشوقاً كثيراً لأذهب معك.

- لماذا إذاً لم تفعل؟

فتنهد لوك، ثم قال بهدوء: «كما تعلمين، روبين كانت يوماً ما عارضة أزياء مشهورة، وكالعديد من المشاهير كان الصحافة تطاردها دوماً. يوم عدنا بالطائرة من أستراليا، علمت أن بعض الصور التي

التقطت لها في وقت سابق من مهنتها في وضعيات غير محتشمة يتم تداولها على شبكة الإنترنت، بالإضافة إلى تلك الاتهامات بأنها كانت ثملة ليلة وقع حادث السيارة. بدت مشتتة التفكير، وتوسلتني أن أبقى معها، فتحدثنا لساعات عن إيف وعن مدى افتقادها له. أردت أن أرافقك إلى المستشفى في اليوم التالي، لكنني خشيت أن أتركها بمفردها عندما أخذت تتكلم عن وضع حد لحياتها».

ليس بمقدور لوك أن يتحمّل عملية انتحار أخرى، لكنه عانى حين أجبر على الاختيار ما بين زوجته وبين أرملة شقيقه المتوفي.

- لكن... لماذا كذبت بخصوص تغيير موعد رحلتك؟

تلعثمت إميلي وهي تقول ذلك، فلاقى لوك نظراتها بعينين باردتين وصافيتين كجدول من مياه الجبل النقية.

- لأنني علمت أنك ستتوصلين على الفور إلى الاستنتاج الخاطئ. رغبت بشدة ويأس أن أراكِ بعد مرور ثلاثة أسابيع على فراقنا، لكن روبين كانت بحاجة إلي أكثر من أي مرة أخرى في حياتها، وليسامحني الله! لم أقدر أن أخذلها.

لابد أن لوك يقول لها الحقيقة. لا أحد قادر على الكذب بهذا الخصوص وهو يبدو مقنعاً على هذا النحو. فكرت إميلي بذلك فانتفض قلبها بشعور ينم عن السعادة جزئياً، فيما الجزء الآخر ينم عن الهلع لكونها فهمت الأمر برمته على نحو خاطئ. ليتها واجهته عوضاً عن الهروب لتداوي جراحها! غمرها الشعور بالخزي لأنها أساءت الحكم عليه إلى هذه الدرجة. أيعقل أنها أخطأت بتفكيرها أيضاً في أنه لم يكن يرغب بالطفل؟

انتشر الأمل داخل إميلي لبضع لحظات، بأن هنالك فرصة كي ينقذا زواجهما. وما لبث الواقع أن عاد مرتداً بخيبته المريرة؛ إذا كان لوك فعلاً لا يشعر بأي شيء تجاه زوجة شقيقه سوى التعاطف، فلماذا إذاً جعلها تستقر في شقته العلوية في شيلسيا بعد انفصال زوجته عنه؟ ولماذا تُراه سمح لروبين بأن تبعدها وجان كلود يوم حاولت إميلي أن تقابله؟

قذفته إميلي بكلماتها وهي تحاول من دون جدوى أن تبتعد عنه، فقالت: «محاولة جيدة لوك. لوهلة كدت تقنعني».

- أتقولين لي إنك تشكين بكلامي؟

نبرة عدم التصديق في صوت لوك كانت لتبدو مضحكة لو أن إميلي تشعر برغبة في الضحك. إنه متعجرف جداً باعتقاده أنها ما تزال تلك الفتاة الخجولة التي تزوجها.

- أعطني سبباً واحداً يدفعني إلى تصديق ما تقوله؟

- لأنك زوجتي!

طمأنت إميلي نفسها أن تلك الومضة في عيني لوك لا يعقل أن تكون ومضة ألم، لذا قسّت قلبها في مواجهته.

- لعلني تزوجتك، لكنني لم أمنحك قط الحق بأن تملي علي أفكاري. أنا أعلم حقاً أنك تكذب، لكنك غير قادر على خداعي بعد الآن. أنا ما عدت المرأة السهلة المنال التي كنت عليها سابقاً.

أنهت إميلي كلامها بفخر، لكن ابتسامة لوك المتكاسلة سببت وميضاً من الخشية في معدتها. غمغم هذا الأخير بصوت أبح: «أحقاً؟ لعله يجدر بي أن أختبر ذلك التغيير فيك، عزيزتي. أنا لا أقوى أبداً على مقاومة التحدي».

فكر لوك بكآبة أنها لن تقوى على مقاومته، تماماً مثلما لا يقدر هو على مقاومتها. كيف تجرأت على اتهامه بالكذب بتلك النبرة المتزمتة؟ بذل قصارى جهده كي يفسر لها علاقته بروبين، وهو لن يحاول مجدداً، كما أنه سئم من الكلام. إنهما يدوران في حلقات مفرغة كما كانا يفعلان منذ سنة مضت. لم يوصلهما الكلام إلى أي مكان حينها. حسناً! هنالك مكان واحد فقط تكون فيه خطوط التواصل بينهما واضحة وخالية من الشوائب. لعلها ترفض الإقرار حتى لنفسها بأنها تريده، لكن ليس هنالك سوى سبب واحد يدفعها إلى أن تتحداه، وهو لن يخذلها.

تحرك لوك فجأة من دون مقدمات، وقبل أن تدرك إميلي نواياه، غطى جسدها بجسده الصلب بحيث صارت مأسورة بين ذراعيه.

- دعني أذهب!

بدا غضب إميلي ممزوجاً بإحساس آخر غير مرحب به. إنه ضخم جداً، ومسيطر جداً، كما أن وقتاً طويلاً مضى منذ أن ضمها بين ذراعيه. استطاعت إميلي أن تشعر بمقاومتها تتلاشى، إذ سيطر عليها إحساس آخر بالضعف. لكنها وجدت من مكان ما القوة لتدفع كتفيه عنها، قائلة بنبرة مهددة: «إذا لمستني سوف أصرخ».

راح لوك يضحك بوقاحة، فيما أنفاسه الدافئة حرّكت خصلات الشعر المجعدة حول أذنها.

سألته إميلي بيأس: «هل تريد أن يقتحم طاقم الطائرة الغرفة؟».

- أنا أفضل عدم وجود جمهور هنا.

ما إن تلاشت ابتسامته، حتى أظهرت الحماوة في عينيه دليلاً صاعقاً على توقه إليها. لوك ما يزال يرغب بها! يجدر بهذا الإدراك أن يروعها، لكن عوضاً عن ذلك صعدت أنّة خافتة من حلقها، وما لبث لوك أن أسر أنينها إذ قربها منه وضمها في عناق محموم. ولو أرادت أن تكون صادقة مع نفسها، فهي لم تجد أي فكرة في ذهنها تدفعها كي تبعده عنها، فهذا ما أرادته منذ اللحظة الأولى التي مشى فيها نحوها في سان أنطونيا.

دفع لوك خصلات شعرها إلى الوراء، وراحت أصابعه تلامس عنقها وأذنها، أين تختفي عزة نفسها عندما تكون بحاجة إليها؟ فكرت بذلك بهلع عندما ابتعد عنها لوك قليلاً، وراح يرسم حدود خدها بلمسته الناعمة.

قالت إميلي لنفسها بصرامة، إنها ترفض أن تستسلم لرغبة تهددها بأن تغمرها. بغض النظر عن مدى تجاوب جسدها مع لمسات لوك، إلا أنها لا تستطيع أن تسمح له بأن يتمادى في ما يقوم به. حملقت به بينما حاولت أن تسحب ذراعيها نزولاً من حيث أسرهما، وزمجرت قائلة: «لست أدري ما الذي تحاول فعله، لكنني لا أريد ذلك».

- لماذا؟ هل لمساتي تسقمك؟

استفسر لوك، فيما غطت أهدابه الطويلة عينيه، فلم تتمكن إميلي من

قراءة تعابيرهما. تذمرت بوحشية: «نعم».

لكن عوضاً عن أن يفلتها لوك، التوى فمه في ابتسامة تهكمية، وقال: «أنت كاذبة».

ثبت رسغيها بإحدى يديه، وأنزل يده الأخرى إلى خصرها ليشدها إليه ثانية، فيما راقب توترها بذهول واضح. قال ساخراً: «أنت تكثرين الكلام. ما الذي جرى لزوجتي الهادئة الصغيرة المطيعة؟».

المطيعة؟! إنه يتحدث عنها كما لو أنها غبية خالية الذهن. كرهت إميلي واقع أن كلماته تحمل بذور الحقيقة. لقد أحبته كثيراً إلى درجة جعلتها مستعدة لتفعل أي شيء يطلبه، أما هو فاستغل ضعفها تجاهه بقساوة وعدم اعتبار لمشاعرها. قالت بصوت جليدي: «لقد نضجت. لكنني أرى أن موقفك المتغطرس تجاه الزواج ما زال على حاله».

ردّ لوك ببساطة: «لا! أنا أطالب بالتملك الحصري لزوجتي، فأنت عدت إلى حيث تنتمين عزيزتي... إلى سريري، وهذه المرة سوف أصرّ على بقائك هناك».

دفعتها لمساته لتصبح أكثر تعلقاً به، فتعلقت بكتفيه طلباً للدعم. تساءلت إميلي يائسة، كيف استطاعت أن تحيا من دونه؟ كيف استطاعت أن تحيا طيلة هذه المدة من دون هذه الأحاسيس الهائجة التي لا يقدر أحد غيره على استثارتها؟ من جهة أخرى، كيف يمكنها أن تستعيد بقايا عزة نفسها في حين أنها تخرج بسرعة عن السيطرة على نفسها؟ يجب أن يتوقف هذا الآن بالذات، قبل أن تعاني من الإذلال الدنيء. إن خيانة جسدها المخزية لها هي نتيجة حرمانها من الحياة الزوجية لفترة تزيد عن السنة. واست إميلي نفسها بذلك، بينما كان اللمعان في عينيه يحذّرها بأنه مدرك تماماً لشوقها إليه الذي يوازي شوقه إليها. أطبقت إميلي أسنانها على بعضها وهي تحاول إجبار جسدها على عدم التجاوب معه.

- إذاً لمساتي تسقمك. أليس كذلك، صغيرتي؟

غزت نبرة لوك الجافة ذاك الضباب الذي غمر إميلي، فأجفلت وأغمضت عينيها كي لا ترى السخرية في عينيه.

- أسلوبك غريب جداً في إظهار ذلك.

ثم وقف ينظر نزولاً نحوها، وأفلتت منه ضحكة خالية من المرح عندما شبكت إميلي ذراعيها فوق صدرها، وهي تعلم أنها حتماً تبدو في حالة فوضوية تماماً. أما لوك فلم يبدُ أن شعرة فيه تحركت من مكانها، كما لم تبدُ عليه أية دلائل جسدية للشغف الذي تشاركا فيه منذ لحظات قليلة.

- يسرني أن أعلم أنك أسقطتِ اعتراضاتك بأن تتولي دورك كزوجتي من جديد، لكن الطائرة سوف تحط بنا خلال خمس دقائق. أقترح عليك أن ترتبي مظهرك قبل أن أقدمك إلى موظفي، فأنت تبدين... مرتبكة قليلاً، صغيرتي.

من المستحيل أن تكره رجلاً أكثر مما تمقت لوك فايلون! قررت إميلي ذلك غاضبة، بينما راحت ترتب هندامها بسرعة. إنها تفضل أن تنتقل لتقيم مع الشيطان بدلاً من العيش مع لوك في قصره. فكرت بذلك وهي تمشي عائدة إلى مقعدها، وهي ترفع رأسها عالياً.

كان جان لوك مستيقظاً وجالساً على ركبة والده، وهو يحدق نحوه بعينين واسعتين مذهولتين. لأول مرة قدّرت إميلي حقاً مدى قدرة لوك عليها. لسبب ما قرر لوك أن يكون أباً لابنهما بعد كل ما حصل بينهما، وهي لن تقلل من قدر عزمه بأن يحصل على مراده. أخبرها أنها تستطيع أن تقيم في قصره، ما دام جان كلود يعتمد عليها، لكن ذلك سيدوم لسنوات. تساءلت إميلي في أي عمر يمكن للطفل الاستغناء عن أمه؟ لن يدفعها أي شيء على الإطلاق إلى ترك ابنها، لكن الثمن الذي عليها أن تدفعه من احترامها لذاتها سوف يكون باهظاً، خصوصاً إذا طالبها لوك بأن تستأنف دورها كزوجة له طيلة مدة بقائها.

طمأنت إميلي نفسها بأنه غير قادر على إجبارها. حسناً! من الآن فصاعداً يجدر بها أن تأخذ حذرها.

٤ - سجينة البرج

تمتاز منطقة اللوار في فرنسا بالنضارة والاخضرار، وهذا تناقض تام مع المنظر الطبيعي الصخري الذي أصبحت إميلي معتادة عليه في سان أنطونيا. تتبعت السيارة مسار النهر قبل أن تبدأ الطريق بالصعود، فاستنشقت إميلي نفساً حاداً عندما برزت أمامها جدران رمادية مهيبة.

دخلت بهما السيارة عبر البوابة المحفورة في الجدار الخارجي نحو الباحة الخارجية الواسعة. استفسرت إميلي بوهن: «أتريد أن يتربى جان كلود هنا؟ إنه مكان ينتمي إلى القرون الوسطى!».

- إنه كذلك. قصر مونتيراد شيد في القرن الخامس عشر، وبالرغم من أن الجدران الخارجية والأبراج وأقبية النبيذ ما تزال باقية من البناء الأساسي الأصلي، وكذلك السجن...

أضاف لوك عبارته الأخيرة، فقذفته إميلي بنظرة مذهولة، باحثة عن آثار للفكاهة عنده، لكنها لم تجد أياً منها، فيما تابع: «... فإن المقر الرئيسي أعيد تصميمه بشكل عصري على يد أخصائيين، وأنا صممت غرفة حضانة جان كلود بنفسي. لن ينقصه أي شيء».

قال لوك ذلك متعمداً، فتساءلت إميلي إذا ما كان يتوقع منها أن تنام في غرفة الغسيل.

- القصر ما يزال في حوزة آل فايلون منذ أن حصلوا عليه عام ١٥٠٦. إنه حق جان كلود بالولادة وميراثه. هذا أمر يجدر بك أن تفهميه، بما أن لعائلتك روابط قوية جداً مع هيوستون غرانج.

سألت إميلي بفضول قائلة: «كيف حصل آل فايلون على القصر؟».

هزّ لوك كتفيه قائلاً: «أتصور أنها القوة، فأسلافي كانوا قطاع طرق.

بالرغم من هذا يذكر التاريخ أن رينيه فايلون كان يمسك زلة على المالك الأصلي للقصر، فابتزه كي يسمح له بالزواج من ابنته. تقول القصة إن الفتاة أصبحت مشتتة الفكر لأنها أجبرت على الزواج من رينيه الفظ، فرفضت أن تنام معه. قام رينيه باحتجازها في أعلى برج في القصر كي يعاقبها. لكنها عوضاً عن منح نفسها له، فضلت أن ترمي بنفسها من القمة. من حسن حظك أنك لا تعانين من موانع مماثلة في ما يخص إقامة علاقة حميمة معي، عزيزتي».

غمغمت إميلي ببرودة متجاهلة سخريته: «يا للفتاة المسكينة! ما من امرأة قد ترغب بالزواج من بربري لا تكن له الاحترام».

انتظرت إميلي أن ينفجر مزاجه الغاضب، لكن عوضاً عن ذلك التوى فمه في ابتسامة حاقدة، وقال: «من المؤسف يا صغيرتي أنك أصبحت تملكين لساناً حاداً، لكن لعله يجدر بي أن أذكرك أن موقعك هنا ضعيف جداً. لن ينفعك أن تزعجيني».

- لا سمح الله! فأنا أدرك أنك تتوقع أن تكون زوجتك مطيعة ولينة.

- إذاً سوف نتفق بشكل جيد.

آه! بكل بساطة عليه أن يقول هو الكلمة الأخيرة. فكرت إميلي بذلك بجموح، بينما راقبت لوك وهو يسير عبر الباحة الخارجية كي يلقي التحية على حشد من الموظفين الذين يرتدون بذلات رسمية، وقد تجمعوا على الدرجات المؤدية نحو الممر الرئيسي. كانت المربية والسكرتيرات اللواتي يعملن لديه قد تبعنهم في سيارة أخرى. حين حرّرت إميلي ابنها جان كلود من المقعد المخصص للأطفال في السيارة، ظهرت ليز كراوفورد، ومدّت ذراعيها نحوها كي تتولى الاهتمام بالطفل.

- السيد فايلون طلب مني أن آخذ الطفل مباشرة إلى غرفة الحضانة الخاصة به، بينما يقدمك هو إلى موظفي منزله.

فغاص قلب إميلي. كانت أميلي قد توددت إلى ليز خلال المحادثة

الوجيزة التي جرت بينهما على متن الرحلة القادمة بهم من إسبانيا. أخبرتها ليز أنها عادت إلى العمل في رعاية الأطفال بعد أن توفي زوجها، أما بناتها فمنشغلات بحياتهن الخاصة. غمغمت ليز متعاطفة: «أدرك أن لا أحد قادر على أن يحل محلك بالنسبة إلى لجان كلود، وبالطبع أنت تريدين أن تقومي بكل شيء بنفسك، لكن زوجك فسّر لي أنك كنت مريضة. أنا هنا كي أمنحك فرصة للراحة عندما تحتاجينها».

بدا الكلام منطقياً في ظاهره، لكن ذلك لم يخلص إميلي من شكوكها. ليز لطيفة وتتمتع بحس الأمومة، لكنها في نهاية الأمر مسؤولة أمام لوك، وسوف تتبع أوامره، حتى لو جعلها ذلك تفصل ما بين جان كلود وأمه. راحت إميلي ترتعد في أعماقها، فيما عبرت الباحة الخارجية إلى حيث كان موظفو لوك ينتظرونهما. تمنت لو أنها استجابت لأوامره فغيرت ملابسها إلى ثياب أقل زهواً وألواناً. رأت فك لوك يتصلب بشكل منذر بالسوء عندما انضمت إليه على الدرج.

من جهته فكر لوك أن إميلي تبدو أجمل حتى مما كانت عليه في المرة الأولى التي تعرف فيها إليها. لاحظ كيف جعلت أشعة الشمس تنورتها تبدو شفافة. أدرك أنه لم يكن الوحيد الذي لاحظ ذلك، بينما رمق أحد سائسي الخيل اليافعين بحملقة منفجرة. لعل سلفه رينيه كان على حق في احتجاز عروسه الشابة في ذاك البرج، بعيداً عن المعجبين. تلك الفكرة لم تحسن مزاجه، إذ عاد وتصلب عندما قامت هبّة نسيم مفاجئة بنفخ شعر إميلي، فتطاير فوق وجهه. بدت رائحة شعرها كرائحة الليمون، نضرة ومغرية، فقاوم لوك رغبته بأن يلف خصلات ذلك الشعر حول أنامله، وأن يحني رأسها ليأخذها في عناق وحشي.

دفعت إميلي شعرها من فوق كتفيها وهي تدرك أن موظفي منزل لوك يحدقون إليها بفضول. لاشك أنهم توقعوا أن تكون زوجته أنيقة ومتميزة. غدت أعصابها متوترة، حتى إنها لم تقوَ إلا على استجماع ابتسامة خجولة عندما قدّم لها لوك رئيس الخدم فيليب الذي ينظم إدارة القصر مع زوجته سيلفي وابنتهما سيمون.

تذمر لوك عندما تبعته إلى البهو الداخلي الواسع قائلاً: «يمكنك على الأقل أن تحاولي التصرف بلطافة. عائلة فيليب عملت في هذا القصر منذ عهود. أتوقع منك أن تعامليهم باللباقة التي يستحقونها، لا أن تتصرفي بتعجرف».

دافعت إميلي عن نفسها قائلة: «أنا لا أتصرف بتعجرف، لكنني لست معتادة على العيش مع عشرات الموظفين. إدارة هيوستون غرانج كانت تتطلب الكثير من الاهتمام، لكن والديّ لم يقدرا على تحمل نفقات توظيف أحد سوى مدبرة المنزل العجوز اللطيفة، بيتي. لست أدري كيف تتوقع مني أن أتصرف، أو حتى ما سيكون دوري في القصر. أنت تقدمني إليهم على أنني زوجتك، لكنني ما زلت لا أصدق أنك تتوقع أن نستأنف علاقتنا كما لو أن شيئاً لم يحصل.

- صدقي، صغيرتي!

اقترح لوك ذلك بكآبة، أما تعابير وجهه فلم يُدرك كنهها، لذا تنهدت إميلي، ونظرت في أرجاء البهو العريض.

على الرغم من أن القصر بدا مهيباً من الخارج، لكنه يتمتع في الداخل بإنارة وتهوئة جيدتين، بحيث تتسلل أشعة الشمس من خلال النوافذ الطويلة. إن القصر أبعد ما يكون عن أن يكون بارداً وصارماً، فقد أوليت عناية كبيرة لجعله مقرّاً عائلياً مريحاً. تأثرت إميلي بسحره، وأحست على الفور أنها في منزلها، وهذا أمر غريب، إذ لطالما أحست بعدم الارتياح في هيوستون. ذكرت إميلي نفسها أن ليس هنالك من جدوى بأن تصبح متعلقة بالقصر، فهي لن تبقى هنا طويلاً. تحركت عيناها لتنظرا نحو الصور التي تزين الجدران. من الواضح أن بعضها قديم جداً، ولا شك أنها لا تقدر بثمن.

قال لوك فيما تتبع نظرات إميلي: «تعرفي إلى العائلة. هنالك صور تمثل كل واحد من أسلافي، أما الرسم الأكثر حداثة فيمثل والديّ».

جان لويس فايلون وزوجته سيلين حدّقا نزولاً من صورتهما نحو إميلي بازدراء، فارتعدت مفاصلها. هل يعود السبب إلى أسلوب

الرسم، أم أنهما كانا باردين وغير ودودين كما يبدوان؟ لوك يتمتع بشبه قوي مع والده، لكن عيني جان لويس بدتا مسطحتين وخاليتين من أية مشاعر، بينما تتقد عينا لوك بالنار. عادة ما يكون سبب ذلك الغضب منها. أقرت إميلي بذلك بحزن.

- هل يقيم والداك هنا في القصر؟

سألته إميلي بقلق، لكن لوك هز رأسه نفياً: «كلاهما متوفيان. ولربما حزرت من الصورة الزيتية أن زواجهما لم يكن زواجاً سعيداً، بل أقرب إلى ترتيب عمل بين عائلتين ثريتين. عائلة أمي كانت تمتلك كروم العنب التي أصبحت الآن جزءاً من ملكية فايلون».

- ألم يحبا بعضهما البعض؟

غمغمت إميلي بذلك، فأطلق لوك ضحكة خشنة: «حتماً لا! والدي كان رجلاً بارداً جافاً، أما والدتي فكانت حساسة، وأمضت غالبية الوقت وهي تشعر بالتعاسة، إلى درجة أحست معها أنها مجبرة على جعل التاريخ يعيد نفسه».

تأثرت إميلي بقصة رينيه وزوجته المأساوية. ثم عبست واستفسرت غير قادرة على إخفاء الصدمة في صوتها: «أتعني أن والدتك قفزت من أحد الأبراج لتقتل نفسها؟ كم هذا مريع! كم كنت تبلغ من العمر حينها؟».

ردّ لوك وهو يهز كتفيه: «في الخامسة عشرة من عمري أو ما يقاربها. لست أذكر بالتحديد».

لكن الكآبة المرتسمة في عينيه أخبرتها قصة مختلفة، فخمّنت إميلي أن كل تفصيل من تفاصيل الحدث المأساوي ما يزال محفوراً في ذهنه. همست قائلة: «هذا شنيع! لا يمكنني أن أصدق أن أمّاً يمكنها ترك ولدها بهذا الشكل».

في الخامسة عشرة من عمره! لابد أن لوك كان بحاجة إلى حب والديه وحمايتهما. تأوه قلب إميلي لأجله. آه! هي أيضاً قامت بإبعاد ابنه عنه. هل مأساة والديه هي السبب الذي يدفعه إلى التردد بإظهار

عواطفه؟ أضافت قائلة: «لابد أنه كان مشهداً بشعاً لمن اكتشفها».

حدّق بها لوك، فيما قفز عصب ما في وجهه، وهو يقول: «نعم. لم يكن منظراً جميلاً».

- أتعني أنك... آه... لوك!

لم تهتم في تلك اللحظة لكونهما عدوين لدودين، فجل ما استطاعت إميلي تخيله هو أن لوك كان مراهقاً، بل صبياً على حافة البلوغ، ومشاعره مشتتة بالكامل. لا بد أن انتحار والدته المروع انطبع في ذاكرته مدى الحياة. وبحسب ما يبدو من منظر والده الصارم، لابد أنه تلقى القليل جداً من التفهم. غمغمت قائلة: «لِم لم تخبرني بذلك من قبل؟».

مدت يدها نحوه بحركة لا إرادية، راغبة في مواساته، وتابعت: «طيلة أشهر زواجنا لم تذكر والديك قط».

نظر لوك نزولاً نحو اليد التي أمسكت ذراعه، فيما بدت تعابير وجهه باردة ومتعجرفة، ما جعل إميلي تسحب يدها بسرعة. لوك لا يتوقع منها تعاطفاً، ولا يرغب به. تجمدت الدماء في عروقها وهي تفكر أنها كانت غريبة عنه ودخيلة عندما تزوجها، والآن لم يتغير أي شيء. سوف تبذل جهدها لأن تتذكر هذا الواقع.

- التحدث عن لعنة زوجات آل فايلون بالكاد بدا لي موضوعاً مناسباً ليوم زفافنا، عزيزتي. يبدو أن الزيجات في عائلتي تنتهي بصورة مأساوية، لكن من أجل جان كلود دعينا نأمل أن زواجنا لن يعاني من القدر نفسه.

أشارت إميلي قائلة: «بدأ للتو يعاني من ذلك القدر، والآن زواجنا مفكك بشكل لا يمكن إصلاحه».

أطلقت تنهيدة تنم عن الإحباط عندما لم يبد لوك أي جواب، بل حدّق فيها ببساطة كما لو أنه عازم على قراءة ذهنها.

- هذا لن ينجح، لوك، فهنالك الكثير من المرارة وانعدام الثقة بيننا، ما يمنعنا من محاولة إكمال زواجنا بالقوة من جديد. لعله يجدر

بي أن أبدأ البحث عن منزل في القرية لجان كلود ولي. مكان ما قريب بما يكفي حتى تزوره بسهولة.

أجابها لوك بفظاظة، بينما راقبته إميلي بعجز وهو يمشي نحو مطلع الدرج العريض: «انسي الأمر! يمكنك أن تبحثي عن منزل ما في القرية لك، لكن ابني سيبقى هنا، وهو حتماً لن يكون وحيداً. أنا أنوي أن أجعل القصر مقراً دائماً لي، للعمل والسكن على السواء. صدقيني! من الآن فصاعداً سينال جان كلود اهتمامي الكامل».

شابت صوتها لمحة من الهلع: «لكن... ماذا بشأن أسفارك، والتزاماتك اللامتناهية ولقاءات العمل في كل زوايا الكرة الأرضية؟ بالكاد يمكنك أن تصطحبه معك إلى اجتماعات مجلس الإدارة».

- سوف أختصر من أسفاري. أقر أنني لا أجد مسألة تفويض أشخاص من قبلي أمراً سهلاً، لكنها تضحية صغيرة مقابل وجود ابني معي.

اتهمته إميلي بمرارة: «هذه تضحية رفضت أن تقوم بها لأجلي. أتدرك كم شعرت بالوحدة أثناء زواجنا؟ ألقيت بي وسط مدينة كبرى، حيث لم يكن لدي أي أصدقاء، أما الفترة الوحيدة التي كنت أراك فيها فكانت في السرير».

ثم تابعت قائلة ببؤس: «نحن لم نتكلم قط، لوك. لم نقم بكل تلك الأمور التي يفعلها غالبية الأزواج سوياً. كأن... لست أدري... نذهب إلى المتجر سوياً».

ردّ لوك بكلمات لاذعة: «وظفت مدبرة منزل ممتازة لتهتم بإدارة أمور الشقة كي لا تضطري أنت إلى القيام بذلك. ثم... أين الرومنسية في القيام بالتسوق لشراء البقالة؟».

- أليس ذلك أفضل من حفلات العشاء المعذبة تلك التي كانت تنظمها روبين.

تذمر لوك قائلاً: «ظننتك ستسرين بالفرصة المتاحة أمامك للقيام بنشاطات اجتماعية. من جهة أخرى، كنت تتمتعين بصلاحية غير

محدودة لاستخدام بطاقات الاعتماد الخاصة بي، لكي تذهبي لشراء ثياب جديدة. غالبية النساء يحبين التأنق».

أضاف ذلك بنبرة تنطق بإحباطه لأنه غير قادر على فهمها. فكرت إميلي بحزن، أن جذور العديد من مشاكلهما تكمن هناك: إنها لا تشبه البتة عشيقات لوك السابقات. لماذا تراه تزوجها؟ إن تصميمه على أن يبقيها زوجته هو أمر محيّر ومربك أيضاً. إنه لغز لا يمكنها حله.

- لا يمكنك أن تجبرني على البقاء هنا.

هزّ لوك كتفيه كما لو أنه سئم من الموضوع بأسره.

- لا. لكنني أستطيع أن أؤكد بأنك لن تطئي بقدمك خارج القصر وأنت تحملين ابني معك.

التهديد المضمر في صوته جعل ارتعادة تنسل نزولاً على عمودها الفقري. هو يعلم أنها لن تترك طفلها.

تابع لوك سيره صعوداً على الدرج، حتى اختفى عن الأنظار. تعثرت إميلي وهي تلحق به، وما لبثت أن توقفت أمام لوحة زيتية ضخمة احتلت جدار مصطبة. إنها صورة امرأة. نمط الرسم وملابس المرأة تدل على أنها إضافة حديثة إلى أرشيف آل فايلون، لكن شيئاً ما بخصوص وجهها أسر اهتمام إميلي. إنها أكثر النساء اللواتي رأتهن إميلي جمالاً على الإطلاق، فهي تتمتع بتركيبة ذات نمط كلاسيكي، بالإضافة إلى شعر أسود كثيف يتوهج كالحرير الخام. أهي واحدة من زوجات آل فايلون الملعونات، أم تراها قريبة للوك؟ بدت عيناها السوداوان باردتين، تفتقران إلى العاطفة، تماماً كما بدا والد لوك. بالنسبة إلى إميلي، تلخص هذه المرأة كل ما ليست هي عليه؛ فهي تبدو أنيقة ومتميزة وكأنها تنتمي إلى القصر، ما ذكرها بأنها هي نفسها، بملابسها الزاهية الزهيدة الثمن ليست سوى دخيلة لا مكان لها هنا. إن العيش في قصر فرنسي معزول قد يكون أسوأ حتى من الإقامة في شقة شيلسيا العلوية. لن تحظى إميلي بأية فرصة لتكوين أصدقاء، أو حتى لتكون لها حياة خاصة بها، وستكون معتمدة كلياً على لوك. هذه الفكرة

الأخيرة أرعبتها.

أسرعت تصعد الدرج الذي قطعه لوك منذ دقائق قليلة، فوصلت إلى شرفة داخلية مستطيلة، يليها رواق حيث سمحت النافذة الموجودة عند أحد طرفيه بتسلل أشعة الشمس. بدا المشهد أشبه بقصة «أليس في بلاد العجائب». فكرت إميلي بذلك، بينما ركضت على طول الرواق، فوجدت أن الأبواب الموجودة على كلا الجانبين مقفلة بإحكام. لاحظت أن الباب الأخير تُرك مشقوقاً قليلاً، فدفعته لتفتحه. علقت الأنفاس في حلقها عندما نظرت في أرجاء الغرفة الهائلة الاتساع.

قد يتوقع المرء أن تبدو الغرفة مظلمة بسبب أرضيتها الخشبية الغامقة، والسقف ذي اللون الغامق. لكن جداراً بأكمله احتوى على نوافذ هائلة ضخمة، أما على الجدار المقابل فهناك موقد ضخم رائع فوقه قماش مزركش، خمّنت إميلي أنه قطعة أثرية متوارثة في القصر. ليس الديكور أو الأعمال الفنية هي التي أذهلت إميلي، بل السرير الضخم ذو النقوش والأعمدة الأربعة، الذي وضع في وسط الغرفة هو ما لفت انتباهها. تساءلت إميلي بارتعادة مفاجئة، هل أجبر رينيه النذل عروسه على مشاركته هذا السرير؟ هل نامت والدة لوك التعيسة في هذه الغرفة، إلى أن قررت إنهاء حياتها؟

- لوك! يجدر بنا أن نتكلم.

بدا لإميلي كأن أشباح الماضي تتربص بكل زاوية من الغرفة. صرخت وهي تستدير حول نفسها، عندما سمعت صوت تدفق المياه في الحمام العصري.

بدا الحمام الملاصق لغرفة النوم مزيجاً بين الماضي التاريخي للقصر وبين المتطلبات العصرية. على الرغم من أن حوض الاستحمام الهائل سيطر على الغرفة، إلا أن حجيرة الاستحمام الموجودة في الطرف الآخر من الغرفة لم تبدُ في غير موقعها.

وجهت إميلي كلامها إلى الشكل المظلل من خلال الزجاج المغطى بالضباب قائلة: «هل أنت مصغٍ؟ بما أنك حريص جداً على أن تشير إلي

بوضوح على أنني زوجتك، فإن لدي حقوقاً أيضاً. ولّت تلك الأيام التي كانت النساء فيها يُعاملن كما لو أنهنّ لسن أفضل من الماشية، وكنّ يعتبرن كإحدى ممتلكات أزواجهن. أنا لست تلك الفتاة الضعيفة الخائفة التي كانت زوجة رينيه عليها، ولن أسمح لك أن تستقوي علي».

- أستقوي عليك؟!

. سُمِعَ صوت أشبه بالانفجار من داخل حجرة الاستحمام، فتراجعت إميلي خطوة إلى الوراء بتسرّع بعيداً عن الباب، لكن الأوان كان قد فات. انشقّت الأبواب الزجاجية، وتسللت يد لوك المبللة التي يغطيها الشعر إلى الخارج فسحب منشفة لفها حول وركيه.

انشدّت نظراتها نحو صدره الرائع، فراقبت كيف تجمعت قطرات المياه وسط الشعيرات التي تغطيه. إنه يبدو رائعاً جداً. لابد أن أفكارها الآثمة ظهرت في عينيها الواسعتين المصدومتين.

- يا إلهي! توقفي عن النظر إلي بهذا الشكل عزيزتي، إلا إذا كنت مستعدة لتحمل العواقب.

غمغم لوك بذلك، فانتقلت نظرات إميلي المذهولة إلى وجهه. لاحظت موجة من اللون تلطخ عظمتي خديه.

بدت يائسة لتخفي حماسها، فردّت بكلمات مفحمة وسريعة: «أنا أردت فقط التحدث إليك. أنت من خرج إلى هنا. لا يمكنني أن أنتظر ريثما...».

قاطعها لوك قائلاً: «هل أنت يائسة لإنهاء ما بدأناه على متن الطائرة؟ ألهذا السبب أنت هنا إميلي؟ هل جعلك العناق تائقة لإتمام العلاقة بيننا؟ لا داعي لأن تقلقي».

طمأنها لوك، بينما تقدم نحوها وتابع: «أنا أكثر من مستعد لمساعدتك على تخطي ترددك باستئناف دورك كزوجة لي».

أطلق ضحكة خشنة، مدركاً أنه يسخر من نفسه لا منها، ثم تابع: «لطالما أفقدتني سيطرتي على نفسي عزيزتي، فأنا لم أشعر بالحاجة إلى

أية امرأة كما أحتاج إليكِ أنتِ».

- لوك، لا!

قاومت إميلي ذلك التفاعل الكيميائي المسيطر عليهما، فيما جذبها لوك لتلتصق بصدره، بعد أن أقفل صنابير المياه. تذمرت وقد ارتكزت نظراتها على لوك وهو يخفض رأسه نحوها: «جئت إلى هنا كي نتحدث بشأن جان كلود. أنا لا أريد هذا».

لكن لوك رد بفظاظة وعدم إحساس: «عزيزتي! أنت تتحرقين شوقاً لهذا».

ارتعدت إميلي بسبب فظاظة كلماته. فكرت بهلع أين هي عزة نفسها؟ على الفور ضمها لوك إليه في عناق سلب منها سلامة عقلها، وطرد كل فكرة أخرى خارج ذهنها، باستثناء توقها الجامح الملح إليه. يجدر بها أن توقفه. كل غريزة من غرائزها حذرتها بأنها تتبع درباً سوف تندم عليه لاحقاً، لكن النار المشتعلة في عينيه جعلتها تتوق إليه أكثر. اختفى رجل الأعمال البارد المتغطرس الذي أحست بالألم بسببه، وحل مكانه العاشق الفرنسي الشغوف الذي لم يقوَ على إبعاد يديه عنها خلال الأسابيع والأشهر الأولى لزواجهما. أدركت إميلي أن سيطرته على ذاته تتأرجح على الحافة. جعلها ذلك الاحساس تشعر بالأنوثة وبأنها محبوبة وجذابة، كما جعلها تشعر بتلك الأشياء التي لم تشعر بها منذ أن حملت بجان كلود.

- أنت تريدين كل جزء من هذا بمقدار ما أريده أنا.

تنفس لوك بذلك بالقرب من أذنها. أرادت إميلي أن تنكر توبيخه الساخر، لكنها بدت عديمة الحيلة، وقد جرفتها دوامة من الأحاسيس الاستثنائية إلى درجة أنها تعلقت بكتفي لوك كي تمسك به جيداً. حملها بين ذراعيه، فأجبرت إميلي على التمسك به أكثر، وأحست بصلابة جسده وتوتره. خرج لوك من غرفة الحمام، ومشى بخطوات واسعة نحو غرفة النوم، ثم توقف بالقرب من السرير الضخم.

- هذا هو المكان الذي كان يجدر بي أن أحضرك إليه ليلة زفافنا،

حيث قامت كل زوجات آل فايلون بمنح أنفسهنّ تماماً وبالكامل لأزواجهنّ.

أخبرها لوك بذلك، وعيناه تلتمعان، فأدركت إميلي أنهما يقتربان بسرعة من نقطة اللاعودة. حذّرها قائلاً: «سوف تكونين ملكي إلى الأبد. أمامك حوالى الثلاثين ثانية لتمنعيني صغيرتي».

أحست إميلي بالضياع. هذا هو لوك، الرجل الذي أحبته يوماً. إذا ما تحلت بالشجاعة لتنظر داخل قلبها، ستدرك أنها ما تزال تحبه. تلوت إميلي فيما ظلت يداها ملتفتين بحزم حوله، ولم تسيطر أية فكرة أخرى على ذهنها سوى أنها ترغب به وتريده.

أنزلها على السرير، وسرعان ما انضم إليها ليثبت لها شوقه إليها، مستعيداً علاقتهما كزوجين بسرعة قصوى.

الأحاسيس التي أثارها داخل إميلي بدت حادة وقوية، فقد اختفى لوك العاشق الماهر المتحكم بذاته، وحلّ مكانه رجل عازم على إثبات تملكه لهذه المرأة بطريقة لا تحتمل الشك. طريقة تصرف لوك جعلت إميلي ترتعد. مع هذا لم يكن ذلك بسبب الخوف، بل التجاوب مع شغف لم تعد قادرة على نكرانه.

ليس هنالك من رابح في هذه المعركة، بل هناك خاسرين! فكرت إميلي بذلك وهي ترمش كي تردع تسارع الدموع إلى عينيها. إنه لا يقرن العلاقة الزوجية مع الحب، أما بالنسبة لها، فهما مرتبطان بشكل معقد لا يمكن الخروج منه. وعلى الرغم من أن جسدها تجاوب تماماً معه، إلا أن قلبها ظل متألماً ويكاد يفيض بالكلمات التي لا يرغب لوك بسماعها.

- أظن أن هذا يبرهن أن بإمكاننا نسيان فكرة الطلاق نهائياً.

قال لوك ذلك، فدمّرت آثار الاكتفاء والرضى البادية في صوته بقايا احترام إميلي لذاتها، لذا لفّت ذراعيها حول جسدها بحركة دفاعية.

- لست آبه مطلقاً بما تظنه.

بدا صوتها ثخيناً بسبب الدموع التي حاولت يائسة أن تخفيها عنه.

لوهلة تجمّد لوك فأحست بنظراته عليها، لكنها مع ذلك رفضت أن تدير رأسها وتنظر إليه.

- إميلي...!

حمل صوت لوك نبرة مثيرة للفضول، لكن إميلي دفعت نفسها كي تتجاهلها. إن لوك مصقول كتلك الحجارة الصلبة في قصره الذي يعود تاريخه إلى العصور الوسطى، وأية لمحة رقة تظنها لديه مردها إلى مخيلتها فقط. قالت بإيجاز: «اذهب إلى الجحيم! لقد نلت مبتغاك. دعنا نترك الأمر عند هذا الحد فقط. هلاّ فعلنا؟».

صلّت إميلي بصمت أن يدعها بمفردها قبل أن تنهمر دموعها. لا يمكنها أن تحتمل رؤيته لها وهي تبكي.

- كما تشائين، عزيزتي. أقترح عليك أن تبقي هنا وتستريحي، فأنت تبدين... مشتتة.

علّق لوك بصوت حريري بينما مشى بخطوات واسعة نحو الحمام المتصل بغرفة النوم، ثم قال: «روبين نظمت حفل استقبال صغير هذه الليلة، إنها فرصة كي تتعرفي إلى بعض أصدقائي الذين يعيشون على مقربة من هنا. الجميع يشعرون بالفضول كي يروا السيدة الجديدة لقصر مونتيراد».

أضاف عبارته الأخيرة، بينما حدقت به إميلي وهي غير قادرة على إخفاء ذعرها.

- أتعني أن روبين هنا؟

ردّ لوك وهو يهز كتفيه بشكل يدل على عدم مبالاته بردة فعلها: «بالطبع! أين تراها ستكون إذاً؟».

- بالفعل، أين ستكون إذاً؟

شعرت بالصدمة من إعلانه هذا لها ومن كشفه الواضح لفظاظته. روبين هي إحدى أجمل النساء وأكثرهن جاذبية في جيلها، ولا ريب أبداً أنها عشيقة لوك، وهي موجودة هنا في القصر! سرعان ما تبخرت أية آمال علقتها إميلي على إصلاح علاقتها مع زوجها.

توقف لوك في مدخل الباب المؤدي إلى الحمام، ثم أطلق تنهيدة تدل على نفاد الصبر قائلاً: «أخبرتك أن مقر عملي أصبح هنا في القصر، وروبين هي مساعدتي الشخصية. أنا أعتمد كثيراً على مهاراتها التنظيمية، لذا حاولي ألا تدعي مخيلتك تأخذك بعيداً».

ارتفع حاجبا إميلي على الفور. ثم قالت: «أنا واثقة أن مهاراتها التنظيمية هي أقل شيء في سحرها، لكن ليكن ما تريده. بالرغم من ذلك، لدي سؤال واحد: من منا سوف تقدمها لأصدقائك على أنها سيدة القصر؟ أقترح عليك أن تفكر بالموضوع قبل أن تسبب الإحراج لأصدقائك».

غمغمت إميلي بذلك، وأجفلت عندما صفق لوك باب الحمام بقوة حتى اهتزت مفصلاته. حينها فقط دفنت رأسها في الوسائد، فبكت إلى أن جفت دموعها. في مرحلة ما غمرها الإرهاق فنامت، ولم تدرك أن لوك عاد، فوقف يحدق بوجهها الملطخ بالدموع، قبل أن يغطيها باللحاف. أخيراً تركها لتنام بسلام وهدوء.

٥ - سيدة القصر

- يجدر بهذا اليوم أن يبقى محفوراً في ذهني إلى الأبد، تماماً مثل اليوم الذي حملت فيه ابني.

غمغم لوك بذلك لنفسه. لكن عوضاً عن ذلك، شخص واحد فقط ظل مسيطراً على أفكاره.

إميلي!

راح اسمها يدور في رأسه كالدوامة، فيغيظه ويعذبه، تماماً كما تفعل إميلي دوماً. أطلق لوك شتيمة ساخطة، وهو يمشي بخطوات واسعة نحو غرفة الطعام متذكراً بوضوح تام كيف تجاوبت إميلي معه منذ بضع ساعات فقط. والآن قبل أقل من ساعة من موعد الذهاب إلى حفلة العشاء الملعونة التي نظمتها روبين، أحس أن جسده يتجاوب مع هذه الذكريات بحماسة جعلته يتأوه. كيف بحق الجحيم يمكنه تحمل فترة العشاء على هذا الشكل، في حين أن جل ما يرغب بفعله حقاً، هو أن يصعد إلى الطابق العلوي، فيأخذ زوجته بين ذراعيه حتى يعوض تلك الأشهر التي أمضياها بعيدين عن بعضهما؟

أقر لوك بكآبة أنها لن ترحب به، فقد تصرف معها كذاك البربري الذي اتهمته إميلي بأنه عليه. اندفع جداً إلى درجة أنه عاملها بخشونة، وربما سبب لها الألم. لم تبدُ تلك فكرة مريحة. مشى نحو النافذة، وحدّق خارجاً نحو المنظر المذهل عبر وادي اللوار. إلحاق الأذى بإميلي ليس جزءاً من مخططه، ولو أراد أن يكون صريحاً مع نفسه، فهو لا يمتلك مخططاً سوى المطالبة بما هو حق له. يا له من إقرار مخيف بالنسبة إلى رجل يفرض تحكماً مطلقاً بكل ناحية من نواحي حياته! إنه

www.elromancia.com

لا يستطيع أن يتذكر مرة واحدة تصرف فيها بعشوائية. إنه لا يحب المفاجآت، ولهذا السبب وجد ردة فعله مذهلة تجاه الابنة الصغرى للورد أنطوني داير.

هيستون غرانج هي إحدى أروع القطع الهندسية في إنكلترا، وسوف يكون كاذباً لو أنكر أن اهتمامه الأساسي كان فقط الحصول على المنازل الريفية المذهلة التي يمكن تحديثها، لأن ذلك يمثل إنجازاً كبيراً في تطوير شركته، لكنه أحس ببعض التعاطف تجاه آل داير الذين امتلكوا هذا المنزل لأجيال. استشعر لوك منذ البداية النوايا الخفية لدى العائلة، لا سيما لدى سارة زوجة أنطوني المندفعة اللجوجة. في الواقع شعر باستمتاع ما لدى سماعه التلميح إلى أن زواجه بإحدى بنات آل داير قد يؤدي إلى تخفيض السعر المطلوب مقابل الملكية. بدت سارة يائسة لكي تبقي لهم موطئ قدم داخل هيستون غرانج، كما أن بناتها الثلاث الأكبر سناً بدون جذابات جميلات. لكن في ما يخص لوك، لم يكن الزواج على مفكرته.

ثم تعرف إلى إميلي...

الآن، وحتى بعد مرور عامين على ذلك، ما زال لوك غير قادر على كبت ابتسامته حين يتذكر منظرها حين رآها للمرة الأولى. ذكّرته إميلي حينها بأميرة الغابة، إذ بدا خدّاها متوردين وشعرها مشبوكاً مشعثاً، فبدا جمالها طبيعياً تماماً ومغرياً إلى حد لا يتحمله العقل. أما حقيقة كونها خجولة وغريبة الطباع كالمهر الصغير، فزادت من درجة سحرها وجاذبيتها. أمضى لوك الأمسية الأولى وهو غير قادر على رفع نظره عنها. وعلى الرغم من قبوله لدعوة أنطوني داير بالبقاء في هيستون غرانج لمناقشة أهم صفقة عمل في حياته، إلا أنه وجد نفسه مشدوداً نحو إسطبلات الخيول.

تذكر لوك أنه احتاج إلى كل ذرة من صبره وهو يحاول اختراق تحفّظ إميلي، لكنها كانت تستحق الانتظار. عندما عانقها للمرة الأولى، أصيب كلاهما بالصدمة بسبب الشغف الذي سيطر عليهما. لم يكن قد

وضع أي مخطط في ذهنه، إذ لم يكن لديه قرار ناتج عن سابق تفكير وتصميم بأن يطلب منها الزواج. تصرف لوك وفقاً للغريزة الفطرية الصرفة، كما لو أن روحه تعرفت على شريكتها، فلم يعد يحتمل أن يدعها ترحل. لكنه يفترض أنها لم تشعر على النحو نفسه تجاهه، ولهذا السبب هجرته.

- هل هنالك أي طلب، سيد فايلون؟

قاطع صوت سيمون أفكار لوك، فاستدار حول نفسه، واستجمع ابتسامة ليوجهها إلى الخادمة التي انتهت من وضع اللمسات الأخيرة على الطاولة.

- كل شيء يبدو جيداً.

قال لوك مجاملته بلغته الأم، فاحمرت وجنتا سيمون بسبب شعورها بالرضى. إنه واثق تماماً بأن حفل العشاء سوف يسير بشكل تام من دون أية تعقيدات، بفضل أطباق سيلفي الممتازة واهتمام فيليب الرصين بكل التفاصيل، لكن شكره الأساسي يجب أن يوجه إلى مساعدته الشخصية. فقط لو أن روبين استشارته أولاً، قبل أن تنظم حدثاً اجتماعياً لأجل إميلي في الليلة الأولى لوصولها إلى القصر! فكر لوك بذلك بكآبة. هو لم يتوقع حتى أن تكون هنا، وافترض أنها ستبقى في شقتها الباريسية، حيث اتصل بها وأخبرها أنه سوف يحضر كلاً من جان كلود وإميلي إلى القصر. تساءل لماذا قادت روبين سيارتها إلى هنا على الفور؟ إنه واثق من أن الملفات الضرورية التي يجب إنجازها ليست عذراً كافياً. تعاملت روبين من قبل مع مسائل أكثر تعقيداً من دون مساعدته، وهي أكثر من أي شخص آخر تدرك التوترات الموجودة في زواجه مع إميلي. لوك يأتمن روبين على أسراره ومخاوفه الخفية، لأنه ليس قادراً على كشفها لإميلي. إنها حتماً تستطيع أن تقدّر مدى رغبته بأن يمضي بعض الوقت بمفرده مع زوجته وابنه.

فكر لوك أن وجودها لربما يكون شيئاً جيداً. إنها طريقة يبرهن بها لإميلي بأن ليست هنالك أية علاقة بينه وبين مساعدته الشخصية.

الماضي وأحداثه هي فقط ما يربطه بروبين، التي لزمها وقت طويل كي تتقبّل موت شقيقه، فباتت تعتمد على لوك كدعامة عاطفية. لكنه فجأة تمنى لو أن روبين تستجمع شتات حياتها مجدداً، فتمنحه حريته كي يتابع حياته.

ما إن همّت سيمون بالذهاب، حتى ناداها لوك قائلاً: «أريدك أن تأخذي هذا إلى الطابق العلوي للسيدة فايلون».

ناولها علبة مسطحة حُفر عليها اسم متجر مميز، ثم تابع: «إنها هدية... شيء ما لترتديه زوجتي هذه الليلة. أحضرته مساعدتي للتو».

أومأت سيمون، فيما التمعت عيناها حماسة.

- سيدتي! آن الأوان كي تستيقظي.

فتحت إميلي عينيها، وحدقت إلى وجه خادمة لوك ذات الوجه المتلهف القلق.

- اقترب موعد العشاء.

فسّرت سيمون مرتبكة بلغتها الإنكليزية المتعثرة، فجلست إميلي مستقيمة ببطء. إنها مستلقية على السرير الضخم الواسع في غرفة النوم الرئيسية في قصر لوك. لحسن الحظ أن أحدهم غطّاها باللحاف السميك المصنوع من الحرير. تساءلت أين هو لوك. أتُراه أرسل سيمون كي تتفقدها خشية أن تشعر بالإغواء لأن ترمي بنفسها من النافذة، مثلما فعلت نساء آل فايلون من قبل؟ أنّت إميلي، ولفّت غطاء السرير حول جسدها، ثم تحركت ببطء نحو حافة السرير.

فسّرت إميلي للخادمة بمزيج من الإشارات مستخدمة لغتها الفرنسية البدائية: «سوف أستحم، وأرتدي ملابسي بسرعة».

قالت سيمون بمرح: «طلب مني السيد فايلون أن أعطيك هذا. مساعدته الشخصية أحضرته لك».

اتسعت عيناها عندما فتحت إميلي العلبة، فكشفت عن فستان أزرق غامق مصنوع من الحرير، ذي رباط رفيعة وقصة منخفضة على الصدر.

- إنه جميل جداً!

فاضطرت إميلي إلى موافقتها بتردد، مدركة أن روبين تتمتع بذوق مثالي.

- إنه جميل جداً، لكنني أمتلك ملابسي الخاصة.

أعادت إميلي الفستان إلى العلبة بين طيّات الورق. عبست عندما رأت حقائبها الفارغة على الكرسي. اكتشفت بعد مزيد من التحقيق أن ملابسها عُلقت في إحدى خزائن الملابس. بدت بذلاتها القليلة الزاهية الألوان ضائعة وفي غير مكانها المناسب، وهي موضوعة في الخزانة الأثرية الضخمة. قالت متحدية: «أظنني سوف أرتدي هذا».

اختارت فستانها الوحيد الذي يدنو قليلاً من أن يكون رسمياً. إنه فستان زهري غامق ذو قبة ضيقة حول العنق، وتنورة طويلة تكشف عن شق يصل حتى أعلى ساقها. أقرت إميلي إنه ليس بالفستان الأنيق، لكنه فستان مشرق زاهي اللون وعصري، والأهم من ذلك أنه ملكها، فهي ترفض أن ترتدي فستاناً اختارته عشيقة لوك.

- لكن السيد فايلون...

أنهت إميلي الكلام بدلاً من سيمون: «...لا يملي علي ما أرتديه. أهو من طلب منك أن تعلقي ملابسي؟».

أومأت الخادمة بالإيجاب، وغدا ارتباكها ملموساً عندما أعطتها إميلي تعليمات بأن تنقل الأغراض الموضوعة في الخزانة إلى الغرفة الفارغة عبر الرواق. تذمرت سيمون قائلة: «السيد فايلون لن يكون مسروراً بذلك».

أجبرت إميلي على أن توافقها، لكن غضب لوك سوف ينصب بأكمله عليها وليس على سيمون.

استحمت إميلي، وغيرت ملابسها في وقت قياسي، ثم كوّمت شعرها الكستنائي الطويل في عقدة، وأضافت لمسة من التبرج على وجهها. أبرزت أهدابها الطويلة مستخدمة فرشاة الكحل، ثم حدّدت شفتيها بأحمر الشفاه اللّماع الشفاف. لاقاها جان كلود في غرفته بحماسة، فحملته بين ذراعيها وهي تطلق تنهيدة استمتاع، وراحت تفرك

خدّها بخصلات شعره الحريرية.

حذّرتها ليز قائلة: «شرب للتو القليل من اللبن. قد يكون فمه دبقاً، وأنت متأنقة للعشاء».

لكن إميلي قالت بمرح: «لست آبه».

أردفت قائلة: «تأخر الوقت الآن على تناوله الشاي».

فأومأت ليز موافقة: «نام طيلة فترة ما بعد الظهر، أما الآن فهو متحمس للعب. سوف ألعب معه أثناء انشغالك مع ضيوفك».

قالت إميلي بعزم: «أفضل أن آخذه إلى الطابق السفلي لملاقاتهم والتعرف عليهم. هل يمكنك أن تمنحيه أسرع حمام في وقت قياسي، ريثما أختار ملابسه؟».

حتى لو تفاجأت ليز، فهي لم تقل أي شيء. ابتسمت إميلي لابنها، وفاض قلبها حباً عندما تلقت تكشيرة جريئة من جان كلود في المقابل. رفضت أن تنظر عن كثب إلى الأسباب التي تجعلها ترغب بأخذ ابنها إلى الأسفل لحضور حفل العشاء. لعل السبب هو التأكيد على دورها في حياة جان كلود بالنسبة إلى لوك، أو لعل السبب هو رغبتها بأن تتباهى بالطفل...

- أنت أروع رجل صغير في العالم!

قالت إميلي ذلك لابنها بعد فترة وجيزة، فبعد أن أخذ جان كلود حماماً، ألبسته بذلة بحار أنيقة.

- شكراً لك عزيزتي، لكنني لست صغيراً، كما آمل أنني برهنت لك منذ قليل.

سمعت إميلي صوت لوك العميق، فاشتعلت وجنتاها. استدارت حول نفسها لتجده على مقربة منها. تصلبت للحظة في مكانها، ثم ارتعشت شفتاها. تظلّلت عيناها بمجموعة من المشاعر التي لم تقوَ على إخفائها، أما الوميض المتجاوب في عيني لوك الرماديتين فأعلمها أنه يدرك ماهية أفكارها الجامحة.

أدارت ظهرها له وهي تقاوم كي تسيطر على هرموناتها. بدا لوك

بهياً ومتألقاً في بذلة العشاء السوداء مع القميص الحريرية البيضاء. اللحظات الحميمة التي أمضياها معاً منذ قليل أثارت مشاعرها بعد مرور أكثر من عام على فراقهما، لكن لا يمكن أن يحصل هذا مجدداً. قالت إميلي ذلك لنفسها بحزم. على لوك أن يفهم أنها امرأة مستقلة.

- لابد أننا نتشارك الأفكار نفسها.

غمغم لوك بذلك، فتحولت وجنتا إميلي إلى لون قرمزي. أضاف ببرود: «أنا أيضاً جئتُ لآخذ جان كلود».

رفع الطفل بين ذراعيه، أما إميلي فتنهدت عندما رأت نظرة الابتهاج على وجه جان كلود، وهو يضع رأسه على كتف لوك.

غمغمت بوهن: «إنك ذو حظوة لديه، فجان كلود عادة لا يتآلف مع الغرباء».

أشار لوك بهدوء: «لكنني لست شخصاً غريباً... أنا والده. لعله تعرف علي من هنا... في قلبه، كما تعرفت عليه أنا بتأكيد مطلق ما إن رأيته، فعرفت أنه ابني».

ذُهلت إميلي لسماعها الأحاسيس الصادقة في صوت لوك. ومضة الألم التي ظهرت في عينيه وهو ينظر نزولاً نحو جان كلود بدت حقيقية. لا يعقل أن يمثّل أي شخص بشكل مقنع إلى هذه الدرجة. مرة جديدة غمرها الشعور بالذنب لأنها أساءت الحكم عليه. لكن... إن كان هذا صحيحاً، فلماذا تُراه ضيّع فرصة رؤية جان كلود بعد ولادته؟ تنهدت إميلي غيرمدركة أنه لاحظ البؤس في عينيها.

- هل هنالك ما يزعجك؟

استفسر لوك بلباقة، كما لو أنه يخاطب أحد موظفيه لا المرأة التي عانقها بشغف عميق، منذ ساعات فقط. ضحكت إميلي بمرارة، وقالت: «أتعني أي شيء آخر عدا أنني اختطفت واحتُجزت في قصرك ضدّ إرادتي؟».

فزم لوك فكه: «إذا كنت تصرّين على الرحيل، سوف أطلب من فيليب أن يقلّك إلى حيث تريدين الذهاب».

- لكن ليس مع جان كلود؟

- لا!

جاء جواب لوك بارداً، فأطلقت إميلي تنهيدة محبطة.

- أنت تعلم أنني لن أتركه أبداً.

- إذاً هو سجن من صنعك أنت، لأنني لن أدعك أبداً تأخذينه مجدداً... أبداً، وإن حاولت...

قاطع لوك كلامه، فنظر نزولاً نحو الطفل بين ذراعيه، ثم أكمل كلامه متوعداً: «... سوف تندمين».

ارتعشت إميلي لدى سماعها التهديد المبطن. كيف تراهما وصلا إلى هذا الموقف؟ فكرت بذلك ببؤس بينما وخزت الدموع عينيها.

- ألا تتمنى لو أن بمقدورنا أن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء؟

همست إميلي بذلك، فهزت ضحكة لوك أعصابها المتوترة.

- أتمنى ذلك كل يوم من حياتي، عزيزتي... لأسباب عديدة جداً.

قال لوك ذلك، لكنها كانت واثقة من أنه يشير إلى زواجهما، وهي متأكدة من أنه نادم على اليوم الذي جعلها فيه زوجته.

أضاف بنبرة ملؤها المرارة: «لكننا لسوء الحظ غير قادرين على تغيير الماضي. فاتني الكثير جداً من طفولة جان كلود، وهو وقت ثمين لا يمكن تعويضه. ولأجل ماذا؟ يا إلهي... إميلي! أنا أحاول جاهداً أن أفهم أين أسأت التصرف، لكن... أحقاً أنني استحقيت عقاباً فظاً إلى هذا الحد؟ لو أنك لم تطلبي الطلاق، لبقيت حتى الآن جاهلاً بمكان تواجد ابني. لعلني يجب أن أعتبر نفسي محظوظاً لأنك حكمتِ علي بسنة فقط. كان بإمكانك أن تبعديه عني إلى الأبد».

دافعت إميلي عن نفسها قائلة: «أخبرتك أنني أردت العودة إلى إنكلترا، كي نتشارك في حضانة جان كلود».

- فقط لأن المال بدأ ينفد منكِ.

تذمرت قائلة: «هذا غير صحيح. أنا لست بحاجة إلى المال. أنا لا أحتاج إلى أي شيء منك. جل ما أردته يوماً هو القليل من وقتك.

أردتنا أن نبني علاقة تربطنا خارج غرفة النوم، لكنك جعلتني أشعر كما لو أن عملي الوحيد هو توفير العلاقة الحسية المرضية لك».

- هذه العلاقة التي كرهتها، كما أفترض؟

سخر لوك منها، فيما اشتعلت عيناه بالنار. تنهدت إميلي، إذ أدركت أنها لن تتوصل إلى جعله يفهم مبتغاها، ثم قالت: «أنا لم أكرهها، لكنني لست مسرورة لأنها سبيل التواصل الوحيد بيننا. لا يمكن للزواج أن يدوم بذلك فقط، وذلك حسبما اكتشفنا حالما أصبحت حاملاً، إذ رفضت أن تقترب مني. لم يكن هنالك الكثير من التواصل بيننا حينها. أليس كذلك لوك؟».

- تبدين كما لو أنك طفلة مدلّلة تنتحب طلباً للاهتمام.

قاوم لوك وخزات ضميره الحادة، التي ذكّرته بأنه لم يمضِ ما يكفي من الوقت مع إميلي. أقر متجهماً أنه لم يكن معتاداً على المشاركة. اعتاد على تقسيم حياته إلى أقسام مستقلة، وحين كان يعود من عمله إلى المنزل، لم يكن يرغب بأن يضجر إميلي بتفاصيل نهاره. أراد أن يحميها ويوفر لها ما تحتاجه، وكان عازماً على القيام بذلك، بكل ما أوتي من قوة. لكن عوضاً عن تقدير جهوده، ظلت إميلي تعيسة جداً إلى درجة أنها هجرته. قرّر بمرارة أنه غير قادر على الفوز معها مهما فعل، لكن ابنه مسألة مختلفة. مشاعره تجاه جان كلود غير معقدة، فهو يحبه من دون أية تحفظات، وهو عازم على ألا يرتكب الأخطاء التي ارتكبها والده نفسها. ربما هو زوج غير نافع بالنسبة إلى إميلي، لكنه سوف يكون أفضل والد على الإطلاق لابنه. استدار حول نفسه، وتوجه إلى الباب المؤدي إلى البهو، ثم توقف للحظة لينظر إلى إميلي بنفاد صبر، قائلاً: «ألم تعطك سيمون الفستان الذي اشتريته لك؟».

- بل فعلت، لكنني قلت لك إنني لا أريد أي شيء منك.

إنها حتماً لا تريد فستاناً كان لوك قد طلب من مساعدته الشخصية أن تختاره لها. لكنني لا أعتقد أن فستاني البسيط يتوافق مع مقاييسك المتطلبة الصارمة».

- كلا، فأنت تبدين كامرأة رخيصة.

قال لها لوك ذلك ببرود، وعلى الفور ودّ لو أنه قطع لسانه عندما شحب لون وجهها. لماذا بحق الجحيم يتعمد إيذاءها؟ هل السبب فعلاً هو أن الفستان يكشف أكثر مما يسرّه أن يراه الآخرون؟ إميلي هي امرأته، إنها زوجته، وهو يود لو أن بإمكانه أن يحتجزها بعيداً عن عيون الآخرين.

- يبدو أن ضيوفنا وصلوا.

تذمر لوك وهو ينزع نظراته عن كتفيها الهابطتين المشبطتي العزيمة. رفعت إميلي رأسها، وقالت له بقسوة: «جيد! لأن الملابس الوحيدة المتبقية التي أمتلكها هي أقصر وأكثر تحرراً، ورخيصة بشكل عام. هي بالطبع لا تشبه البتة ما اعتادت عليه صديقاتك اللواتي يرتدين أزياء من تصميم مصممين معروفين».

ما إن انطلقت إميلي مسرعة تتخطاه، حتى قبض لوك على ذراعها. قال محذّراً بنعومة: «انتظر أصدقاؤنا فترة طويلة كي يتعرفوا إليكِ، ولديهم الانطباع أننا أنا وأنت وجان كلود، نشكل عائلة واحدة سعيدة. فدعينا لا نخيب ظنونهم».

سألته إميلي بغير لباقة: «ما الذي يعنيه ذلك؟».

تمهل لوك عند قمة الدرج، ثم حدق نزولاً نحوها، وقال: «يعني أنك الليلة سوف تلعبين دور زوجتي الوفية، وتظهرين أنك سعيدة لأننا عدنا واجتمعنا».

لماذا تُراه متلهف كي يبرهن أن علاقتهما سعيدة؟ إنه رجل فخور جداً بنفسه، وعلى الأرجح أنه لا يقوى على احتمال فكرة أن يعلم أصدقاؤه أنها هجرته. أعلمته ببرود وهي تمرُّ من أمامه لتنزل الدرج بسرعة: «أخشى أن قدراتي التمثيلية ليس جيدة جداً».

ابتسم لوك بتهكم، وقال: «ارتجلي إذاً عزيزتي، تماماً كما فعلت بعد ظهر هذا اليوم. بدوت مصرة جداً على أنك لا ترغبين بإقامة علاقة حميمة معي، لكنني لم ألحظ أي شيء من ذلك في تجاوبك الجامح

معي. أنت تتمتعين بموهبة أكبر مما تظنين».

كانت إميلي ما تزال تبحث عن جواب مفحم ملائم عندما وصلا إلى باب قاعة الاستقبال، فتقدمت امرأة طويلة شقراء أنيقة إلى الأمام لتلقي عليهما التحية: «إميلي! مضت فترة طويلة على آخر لقاء لنا».

غمغمت روبين بنبرتها الباردة التي تذكرها إميلي جيداً، فغاص قلب هذه الأخيرة بين ضلوعها. روبين تبدو مذهلة -كما كانت دائماً- في فستانها المخملي الأسود الثمين، الذي بدا ملتصقاً بجسدها كما لو أنه جلدها الآخر. في الحال أحست إميلي بالخجل من فستانها الرخيص الصارخ اللون. كان يجدر بها أن ترتدي الفستان الذي اشتراه لها لوك، لكن فات الأوان الآن لتبدل ملابسها. بدأ ذلك التوتر المألوف المثير للغثيان يربط معدتها مجدداً، فاستجمعت قواها كي تتعرف بضيوف لوك.

- الجميع يتوقون للتعرف بالسيدة فايلون الغامضة. دعينا نأمل ألا تخيب ظنونهم.

غمغمت روبين بذلك بنعومة فائقة، بحيث لم تسمعها سوى إميلي.

تجمع أصدقاء لوك حوله، فأحست إميلي كما لو أنها غير مرئية، بينما قام لوك بكل فخر بتعريفهم على ابنه. بالطبع! بدا جان كلود لطيفاً ومحبباً جداً. أقرت إميلي بذلك بأسى. كما أنه لم يُبدِ مطلقاً أي شعور بالضيق بسبب الاهتمام المغدق عليه. ما إن حاولت إميلي أن تنسل خلسة إلى إحدى زوايا الغرفة، حتى استدار لوك ومدّ يده نحوها: «أودّ أن أقدم لكم زوجتي إميلي».

قال ذلك بينما لفحتها نظراته الحارقة، حين استقرت عيناه على وجهها. رفع يدها نحو شفتيه، وتابع قائلاً: «كما تلاحظون، حظيت بنعمة مضاعفة بحصولي على زوجة جميلة جداً».

لوك مؤهل حتماً لأن يربح جائزة أوسكار! فكرت إميلي بهلع أنها لا تأبه بقدراته التمثيلية، فيما راح خداها يحترقان عندما ضغط بفمه على يدها. بالرغم من معرفتها أن الأمر برمته مجرد إدعاء، فذلك لم يمنع

قلبها من التخبط بقوة، خصوصاً عندما وجدت شفتا لوك النبض الذي كان يقفز بشكل جنوني في رسغها. كادت تصدق أن وهج الدفء في عينيه حقيقي. لن يبقى لدى أصدقاء لوك أي شك بخصوص تكريس نفسه لها، لكن هي وحدها تعرف أن الأمر غير حقيقي.

بدا وجود جان كلود دافئاً يكسر الجليد، وترك تأثيراً رائعاً على الحاضرين. بدا واضحاً لإميلي أن الأشخاص الموجودين هنا هم أصدقاء لوك الذين يثق بهم، وهم أبعد ما يكون عن شركاء لوك في العمل الذين قابلتهم في شيلسيا، والذين يحاولون صعود سلم الطبقة الاجتماعية الراقية. بدأت إميلي تسترخي تدريجياً، مدركة أنها الآن تتعامل مع الأشخاص الذين أمضى معهم لوك طفولته، وأصبحت لديهم عائلات خاصة بهم الآن.

- تعجبني جداً بذلة جان كلود. إنه يبدو كالبحار.

علّقت بهذا الكلام امرأة جميلة مرحة من المجموعة التي تجمعت حولها لابداء إعجابها بالطفل. نادين تروفيير هي زوجة مارك، الصديق الأقرب إلى لوك. إنها أم لفتاتين صغيرتين، وتمتلك متجراً ناجحاً متخصصاً بملابس الأطفال في مدينة أورلينز. استفسرت المرأة باهتمام: «من أين اشتريته؟ إنه مصنوع بشكل مميز، خصوصاً التطريز اليدوي على صدره. لا أريد أن أبدو فظة، لكن لابد أنه باهظ الثمن. كل ما هو أفضل لابنك. أليس كذلك، لوك؟».

أجاب لوك ببرود: «هذا طبيعي».

لكن إميلي علمت من الطريقة التي ضاقت بها عيناه أنه يتساءل عن الطريقة التي تمكنت فيها من تحمل نفقات شراء ثياب الأطفال الغالية الثمن، في حين أنها لم تكن تمتلك سوى القليل من المال. أعلمت إميلي تلك المرأة بابتهاج، قائلة: «في الواقع، أنا صنعته بنفسي. عشت... في إسبانيا لفترة من الزمن...».

أحست إميلي أن لوك تصلّب، لكنها تابعت كلامها على أي حال قائلة: «... ووقعت في حب ملابس الأطفال الرائعة التي تباع في

الأسواق، لكنني اكتشفت أنه بالرغم من كونها تبدو جميلة، لكنها غير عملية، فالقماش يبدو غالباً قاسياً وغير مريح. بحثت عن أقمشة أفضل، ثم أعدت تصميم ملابس الأطفال الرسمية جداً التي يحبها الإسبان، بحيث صارت مريحة أكثر للطفل. أترين؟».

أظهرت إميلي ذلك لنادين متابعة كلامها: «يمكن إزالة قبة بذلة جان كلود، كما أنها تقفل من الأسفل بحيث تصير عملية إلباسه أسهل. إنه لا يتمتع بالكثير من الصبر ليبقى هادئاً ريثما ألبسه ثيابه».

أضافت ذلك وهي تبتسم، أما نادين فأومأت لها بتلهف، ثم علقت: «عانيت من المشكلة نفسها مع ابنتي أيضاً. إميلي، هذا رائع! ألديك تصاميم أخرى؟ هل فكرت يوماً أن تصنعيها كي تبيعيها؟ أنا مهتمة جداً بأن أعرض هذا النوع من الملابس في متاجري».

أقرّت إميلي وهي ترفض ملاقاة نظرات لوك قائلة: «حسناً! أنشأت عملاً تجارياً صغيراً في إسبانيا. صديقتي تدير مدرسة لتعليم فن الطهو، حيث معظم النساء متقدمات في السن، وقد رغبن بشراء ثيابي لأحفادهن. لاقت هذه الملابس رواجاً كبيراً، وبدأت تصلني طلبات من مختلف أرجاء العالم، لذا وظفت بضع فتيات من القرية كي يساعدنني في الخياطة، والآن صار عملاً صغيراً ناجحاً. لحسن الحظ أن لورا تشرف على الأمور لبعض الوقت ريثما...».

ترددت إميلي لأنها رغبت بالافصاح عن سبب مغادرتها لإسبانيا، لكن غموض تعابير لوك جعلها تغير رأيها بشأن قول الحقيقة، فتابعت: «استمتعت بقدرتي على جني المال من خلال قيامي بشيء أستمتع به، فيما أظل قادرة على رعاية جان كلود في الوقت نفسه. فن الخياطة هو الشيء الوحيد الذي برعت فيه على الإطلاق».

- بالإضافة إلى ركوب الخيل!

قاطع لوك حديثها، فيما تمشى عبر الغرفة ليطوق خصرها بذراعه، ثم أخبر الضيوف بفخر قائلاً: «زوجتي سائسة خيل ممتازة. إنها لا تخاف البتة. ألست كذلك عزيزتي؟».

بدا الجميع مأخوذين باهتمامه بها، ولا شك أنهم اعتقدوا أن زواجهما مثالي. فكرت إميلي بذلك بكآبة، إذ إنها هي وحدها تعرف الحقيقة، وتدرك أن نظرات لوك المحببة هي تدبير معد فقط لصرف الحديث عن حياتها في إسبانيا، حيث عاشت من دونه. لسبب ما أراد لوك أن يبرز صورة الزوجين السعيدين اللذين ينعمان بالهناء، لكنها لا تعرف هذا السبب.

ناولت إميلي ابنها إلى مربيته، فيما تهيأ الضيوف للدخول إلى غرفة الطعام، أما نادين فقالت لها: «عليك أن تقنعي زوجك بأن ينشئ لك معملاً في القصر. هنالك سوق جاهز لاستقبال الملابس المصنوعة يدوياً ذات النوعية الرائعة. الأمهات الباريسيات سوف يحببن هذه الملابس، وأنا مستعدة لأن أقدم لك عرضاً ممتازاً إذا كنت توافقين على عرضها في متاجري. سوف نكمل حديثنا في وقت لاحق».

أضافت نادين جملتها الأخيرة بهدوء عندما حدّقت روبين بهما، ولم تقوَ على إخفاء انزعاجها لبضع لحظات، قبل أن تعود ابتسامتها المشدودة المصطنعة إلى مكانها. ابتسمت إميلي بامتنان للمرأة الفرنسية، وسرّها أن تجد حليفة لها.

كان الوقت قد أصبح متأخراً عندما قاد آخر أصدقاء لوك سياراتهم خارج أبواب القصر، أما الألم الباهت الذي أحست به إميلي في صدغيها فتحوّل إلى شرخ من الألم النابض. بالطبع روبين هي الوحيدة التي بقيت، لأنها تقيم في القصر. انضمت إلى إميلي ولوك على الدرج الأمامي كي تلوح للضيوف مودعة. إنه ثلاثي صغير حميم... إلى حد بعيد. تأملت إميلي في ذلك بسوداوية، فيما تتبعت خطى زوجها لتعبر البهو. بالكاد تحدثت روبين مع إميلي طيلة الأمسية، ولاءم ذلك إميلي. لم يكن لدى أي منهما ما تقوله للأخرى. لاحظت إميلي النظرات التي وجهتها روبين للوك خلال العشاء، فهي ليست عمياء، لكن الأمر المثير للفضول هو عدم تجاوب لوك معها، إذ بدا متغافلاً عن محاولات مساعدته الشخصية لنيل اهتمامه. إن إميلي مستعدة كي تصدق أنه قال

الحقيقة عندما أنكر وجود أية علاقة مع روبين، وهي مستعدة أيضاً كي تصدق بأن روبين كذبت عليها، لكن هذا لا يغير شيئاً فهو لا يعني أن لوك يحبها، فكرت بذلك بحزن.

- أنا ذاهبة إلى النوم.

أعلنت إميلي ذلك بفظاظة عندما وصلت إلى آخر البهو. بدا لها فجأة أن صعود الدرج صعب جداً، وشعرت بالصدمة لمدى شعورها بالارهاق والاستنزاف.

- إميلي، هل أنت على ما يرام، صغيرتي؟ تبدين شاحبة جداً.

غمغم لوك بذلك، فتخيلت إميلي للحظة وجيزة جنونية أنه سيحملها بسرعة بين ذراعيه، ويأخذها إلى الأعلى على ذلك الدرج الطويل نحو ذاك السرير الواسع.

- دعيني أساعدك عزيزتي.

اخترق صوت لوك ذاك الضباب الخيالي الذي غلف إميلي. للحظة نسيت أن لعبة تمثيل دور العائلة السعيدة كان فقط من أجل ضيوفه. ابتسمت له، وظهرت أحاسيسها في عينيها بوضوح، فسمعت لوك يستنشق أنفاسه بحدة، لكن نبرة روبين الحادة كسرت اللحظة. تذمرت روبين قائلة: «إذا كان بمقدورك أن توفر لي خمس دقائق لكي تطلع على هذا التقرير. إنه طارئ. أنا واثقة أن إميلي تتفهم أهمية ترؤسك لشركة تقدر بعدة ملايين من الجنيهات».

ردّ لوك باختصار: «ألا يستطيع الأمر أن ينتظر حتى الصباح؟».

اقتربت روبين قليلاً منه، واستقرت يدها على كم سترته بخفة.

فكرت إميلي بوحشية، أنها لن تتقاتل مع روبين على زوجها، كما لو أنهما كلبتان تتقاتلان للحصول على عظمة. ابتعدت فجأة عن لوك، وغمغمت قائلة: «يمكنك أن تحصلي عليه قدر ما تشائين. أنا لا أريده».

بعد ذلك مشت بخطوات ثابتة على الدرج، فيما نظرات لوك الساخطة تحرقها كأشعة اللايزر بين كتفيها. قالت لنفسها بصرامة إن

روبين حرة في أن تحصل عليه. يكفيها أن لديها جان كلود، والآن يبدو أن أمامها فرصة لتبني مهنة قد تمنحها الاستقلال المادي والشعور بقيمة نفسها.

كانت إميلي على وشك أن تخطو على الدرجة التالية، حين أحست كما لو أن الدرجة اختفت من تحت قدمها. وما لبثت أن وجدت نفسها محمولة ومشدودة إلى صدر لوك الصلب. تنفس لوك بالقرب من أذنها قائلاً: «إنك قريبة جداً إلى حد الخطر من أن تبرهني لي هنا والآن أنك لا تريدينني حقاً، عزيزتي».

عضلات ذراعيه الملتفة حولها أنباتها بغضبه الذي يغلي على مهل، لكن إميلي استشعرت أموراً أخرى أكثر رقة، فالدفء المنبعث من جسده بالإضافة إلى رائحة المسك لعطر ما بعد الحلاقة أحدثا أموراً غريبة بداخلها. قاومت توقها لأن تضغط بوجهها على عنقه الطويل الأسمر. شعرت أن أحاسيسها تخدرت وهي محمولة على هذا النحو إلى صدر لوك.

تذمرت إميلي ببرود يخفي اضطرابها الداخلي: «إنها فكرة مثيرة للاهتمام، لكن روبين قد لا توافق».

- اللعنة على روبين!

- لمرة واحدة أوافقك الرأي تماماً.

اتجه لوك نحو غرفة النوم الرئيسية، فأغارت على إميلي موجة من الهلع، بحيث صارت تتلوى بجموح، إلى أن أجبر لوك على إنزالها.

- أريد أن أتفقد جان كلود.

اصطدمت بلوك وهي تعبر من أمامه ذاهبة إلى غرفة الطفل. تسللت نحو السرير الهزاز، فيما تبعها لوك. حدقت نزولاً نحو ابنها البريء النائم، فتصلب عزمها. همست بحدة: «أريد أن أكون حرة لأعيش حياتي. لا يمكنني أن أبقى هنا سجينة لديك بانتظار اليوم الذي لن يعود فيه جان كلود بحاجة إلي. هنالك أشياء أرغب بفعلها».

- كإنشاء عملك الخاص مثلاً؟

اقترح لوك ذلك متهكماً، فارتدت عليه إميلي غاضبة تقول: «نعم. اللعنة! ما السوء في ذلك؟».

ارتفع صوت إميلي بالتساوي مع غضبها، فتحرّك جان كلود في سريره. قبض لوك على ذراعها، وقادها من خلال الباب الموصل إلى غرفة النوم الرئيسية. أخبرها وهو يديرها حول نفسها لتواجهه: «عملك هو أن تكوني أماً لجان كلود وزوجة لي. ألا يكفيك ذلك؟ يا إلهي! وكأننا بحاجة إلى المال».

بدا إحباطها ملموساً إذ قالت: «لا يتعلق الأمر بالمال. أنا أخيراً وجدت شيئاً أبرع فيه بعد عمر أمضيته بكوني الابنة غير الموهوبة والزوجة غير الملائمة، وأرغب باستغلال الفرصة كي أترك أثراً في هذا العالم. علامة صغيرة، أعرف ذلك...».

ثم أضافت: «... لكن مع نمو جان كلود، أريده أن يشعر بالفخر بي».

- أوتظنين ذلك سيحصل لو كنت منغمسة تماماً في مهنتك؟

- من الطبيعي أن يحل ابني في المرتبة الأولى دائماً.

لكن العزم والتصميم البادين على تعابير وجه لوك أنذراها بأن هذا الحديث لن يصل إلى أي مكان، فتابعت قائلة: «كان يجدر بي أن أعلم أنك لن توافق. أنت لم تردني يوماً أن أعمل أو أن أحظى بفرصة التعرف إلى أشخاص في مثل سني، حتى قبل أن أصير حاملاً. ما زلت أذكر ما حدث عندما حصلت على وظيفة في أوسكارز».

انفجر لوك قائلاً: «كنت تقومين بخدمة الطاولات».

- في أحد أفخم مطاعم لندن. إنه بعيد الشبه جداً عن مطاعم الوجبات السريعة التي تبيع الهامبرغر.

- مع ذلك لم تكن تلك وظيفة ملائمة لزوجتي.

تذمرت إميلي بنكد وكآبة: «ما زلت لا أصدق أنك دخلت إلى هناك فيما كنت أعمل، فحملتني فوق كتفك إلى خارج المطعم. يومها أذليتني تماماً».

أضافت ذلك وهي تتذكر المشادة الساخطة التي تبعت توليه للأمور بهذا الشكل. أما جدالهما الحاد فانتهى مثلما كان ينتهي دوماً، باستسلامها المطلق في السرير. أنّت إميلي داخلياً وهي تسترجع الذكرى المخزية لضعفها تجاه لوك، ثم قالت له بمرارة: «لورا قالت إنك مهووس بالسيطرة».

ارتفع حاجبا لوك باستغراب، ثم تشدق متهكماً: «لورا تلك هي نفسها التي أقنعتك بالاختباء في إسبانيا، كما أفترض. لابد أن تذكريني بأن أشكرها إذا قابلتها يوماً ما».

كان هذا أطول نهار في حياتها، وهي ترغب بالذهاب إلى النوم، لكن بمفردها.

- بعد بضعة أسابيع من إجبارك لي على ترك وظيفتي، اكتشفت أنني حامل، أما البقية، كما يقال، فأصبحت من الماضي.

مرر لوك يده من خلال شعره، فيما أخذ يخطو عبر أرض الغرفة.

- أقر أنني لم أكن موجوداً لأجلك بقدر ما كان يفترض بي أن أكون خلال فترة حملك.

فأطلقت ضحكة مريرة.

- بالفعل، أنت لم تكن موجوداً لأجلي، لكن هذه نقطة واحدة فقط، إذ فجأة بدت الأعمال الخاصة بك في نيويورك وروما وكل ناحية أخرى من الأرض أكثر أهمية من تمضية وقتك معي.

- كانت هنالك أسباب...

- ...كما ظهر جلياً اشمئزازك من جسدي مع تطور حملي.

قال: «بحق السماء! ذلك ليس صحيحاً على الإطلاق. لست أدري كيف يمكنك أن تقولي أمراً مماثلاً».

أصرت إميلي بائسة: «بل هو صحيح. والدتي فسرت لي أن بعض الرجال يجدون فترة حمل المرأة شيئاً منفراً. طلبت مني ألا أقلق، وطمأنتني إلى أن الأمور سوف تعود إلى حالتها الطبيعية بعد ولادة الطفل. لكنها لم تكن تدرك أن زواجنا لم يكن طبيعياً منذ البداية».

اقترح لوك غاضباً: «لماذا؟ ألأنني كنت منشغلاً في العمل، فلم أمنحك ما يكفي من الاهتمام؟ بدا كما لو أن العالم دخل إلى مرحلة من الجنون خلال تلك الأشهر قبل رحيلك».

قال لها لوك ذلك بكآبة، ثم تابع: «كانت هنالك مشاكل داخل الشركة، كما شككنا بالاختلاس، ما يعني أنه لم يكن بمقدوري تفويض الأعمال إلى أي شخص باستثناء بضعة موظفين جديرين بالثقة. كان التوقيت في أسوأ فترة ممكنة».

وتابع: «شعرت بالقلق عليك، فقد كنت يافعة جداً حتى تواجهي قساوة الولادة، كما أن شعورك المستمر بالغثيان جعلك منهكة القوى. كنت أنظر إليك في بعض الأحيان فأحس بشعور غامر بالذنب. ما كان يجدر بي أن أتزوجك أبداً».

أنهى لوك كلامه بصوت أبح قائلاً: «كان يجدر بي أن أتركك بريئة وخالية من الهموم برفقة أحصنتك».

لوهلة اعتقدت إميلي أن قلبها تقطع إلى آلاف القطع، إذ مزّقها الشعور بالألم. أخيراً أقر لوك أنه يعتقد أن زواجهما كان غلطة. قالت: «حسناً! من المخزي بالنسبة لكلينا أنك لم تفعل ذلك. لكن حتى ولو كان زواجنا شيئاً نندم عليه كلانا، فأنا لا يمكنني أبداً أن أندم على إنجاب جان كلود، وهو أمر فعلته أنت. لا يمكنك أن تلومني على اعتقادي بأنك لم تكن تريده عندما رفضت فكرة حملي».

ألقى وميض الشموع الخافت ظلالاً في أرجاء الغرفة، فبدا وجه لوك كما لو أنه منحوت من الرخام.

- متى منحتني فرصة على الإطلاق؟

- يوم أحضرت جان كلود ليراك.

ضاقت عينا لوك، وأصبح توتره ملموساً، إذ قال: «أنت تكذبين!».

أجابت إميلي برد لاذع سريع قائلة: «لِم سأفعل ذلك؟ حصل ذلك في شهر كانون الأول. كان البرد قارساً، وكان عمر جان كلود ستة أسابيع فقط. لزمني وقت طويل كي أتعافى من ولادته».

حدّق بها لوك، فيما تابعت كلامها متلعثمة: «ذهبت إلى شقتك... فكرت أنني حتى لو لم أجدك هناك، فسأعرّف مدبرة منزلك عليه، السيدة باتيرسون. لكن روبين هي التي فتحت الباب».

قاطعت إميلي كلامها وهي تتذكر نبرة الانتصار في صوت روبين، عندما فسّرت لها بأن لوك شديد الانشغال، ولا يستطيع مقابلتها في ذلك الوقت ولا في أي وقت من المستقبل المنظور. يومها وقفت روبين في مدخل الباب بطولها وأناقتها التي لا تحتمل، فصدّت دخول إميلي إلى المكان الذي كان في ما مضى منزلها، من دون أن تبالي بأن الحرارة المتدنية في الخارج غير مناسبة للطفل.

- يومها أخبرتني روبين بما أقريت به أنت للتو: أن زواجنا هو غلطة، كما أنه لم تكن لديك رغبة بأن ترتبط بطفل يعيقك.

مشى لوك عبر الغرفة بخطوات واسعة في لمح البصر، فأمسك بإميلي عند أعلى ذراعيها. أما هي فأجفلت عندما اشتدت قبضة أصابعه، وهو يقول بوحشية: «لا يعقل أن يكون هذا صحيحاً! ظننت أنني أعرفك جيداً... لم أتصور أنك قد تنحطين إلى هذا المستوى السافل، فتتهمين مساعدتي الأكثر ثقة لدي، وزوجة شقيقي بأنها تعمّدت هندسة هذا الشرخ بيننا. هذا أمر لا يمكن غفرانه. إنك تسببين لي الاشمئزاز. روبين كانت قلقة جداً بخصوص اختفائك، مثلي تماماً».

تذمرت إميلي، وقد أجفلت عندما قرصت أنامله جلدها: «بالطبع كانت كذلك لوك. ذراعي... إنك تؤلمني».

أفلتها لوك، فغرقت جالسة على حافة السرير. طالبها لوك: «لِم عساها تفعل أمراً مماثلاً؟ هي تعلم كم كنت يائساً لأرى ابني. لِم تراها تحاول إبقاءه بعيداً عني؟».

قالت إميلي بحذر: «لأنها أرادتك لنفسها، وما تزال كذلك. أفترض أنها خشيت أن تكون مستعداً لتمنح علاقتنا فرصة جديدة».

تابعت إميلي بكلمات لاذعة وسريعة: «حقاً! ما كان يجدر بها أن

تتكبد هذا العناء، فمن الأسهل أن تُرفع سفينة التايتنيك من أسفل المحيط، بدلاً من إعادة إحياء زواجنا».

- أنا لا أصدقك.

قال لوك ذلك، لكن هذه المرة حمل صوته نبرة شك. أما اليد التي مرّرها من خلال شعره فلم تكن ثابتة تماماً. قذفته إميلي بكلامها متحدية: «اسألها إذاً! لأنني أقسم لك إنني أقول الحقيقة».

www.elromancia.com

٦ - إعلان الهدنة!

إنه ليس مهووساً بالسيطرة!

تردد في ذهن لوك اتهام إميلي له وهو ينطلق مندفعاً إلى مكتبه. صحيح أنه منعها من العمل في ذلك المطعم، لكن أي زوج يسعد برؤية زوجته تعمل وترهق قدميها بالوقوف حتى وقت متأخر من الليل؟ الذنب يقع على رئيس الطهاة في مطعم أوسكارز، الذي جمعها بلورا برينت، فتوطدت بينهما صداقة متينة لأسباب لم يفهمها لوك.

هل كانت إميلي تعيسة جداً في لندن مثلما كشفت له الليلة؟ أنّبه ضميره لأنه فعلاً كان منشغلاً جداً بأعماله إلى حد غير معقول. مرت فترة ضاغطة في العمل، لذا فهما لم يمضيا الكثير من الوقت سوياً بعيداً عن حفلات العشاء اللامتناهية التي كانت تنظمها روبين. لعل إميلي شعرت بالوحدة، فهي شابة فتية في المدينة الكبرى، لكن لوك طمأن نفسه إلى أنه حاول الاهتمام بها. كم من المرات رفض الراحة التي قد ينعم بها في فندق ما لكي يتمكن من تمضية بضع ساعات ثمينة مع زوجته؟ أما هي فكانت تسرّ برؤيته. بالرغم من أنه كان يبذل أفضل جهوده كي ينسل داخل السرير من دون أن يوقظها، لكن إميلي كانت تتحرك وتقترب منه كي تدفأ بالقرب منه.

كيف بحق الجحيم ساءت الأمور بينهما على هذا النحو؟ لطالما شعر بالانزعاج من غيرة إميلي من روبين، لكنه أمل أن تمنحهما الإجازة فرصة للاسترخاء ولإعادة اكتشاف المتعة التي تشاركا فيها خلال أولى أيام زواجهما، لكن عوضاً عن ذلك وقعت كارثة مطلقة.

ما زالت الذكرى تطارده حتى اليوم. ما زال يتذكر منظر وجه إميلي

الأبيض الشاحب عندما انزلقت لتتحول إلى كتلة متجمعة عند قدميه. ليس خبر حملها ما أثار غضبه، لكنه شعر بخوف أفقده صوابه عندما فكر باحتمال خسارتها. ومع أنها اجتازت الأشهر القليلة الأولى بأمان، لكنه لم يكن قادراً على الاسترخاء. مع اقتراب موعد وضعها، كان قد أبعد نفسه عاطفياً وجسدياً عنها، إذ اتبع استراتيجية دفاع عن النفس تعلمها في طفولته.

لا ذنب لإميلي في ذاك الألم العاطفي الذي يحمله من طفولته. أقر لوك بذلك بكآبة، خصوصاً أنه لم يسرّ لها بمخاوفه ولا بأسبابها أيضاً. الذنب ذنبه لأنه فشل في إرضائها، والآن هو لا يتصرف أفضل من والده. إنه لا يستطيع فعلياً وواقعياً أن يبقيها سجينة في القصر. لكن معرفته أنها لا تريد أن تعيش معه سبب له ألماً لا يقاس، ويكاد يقارب الألم الذي سببته باتهامها له أنه رفض رؤية جان كلود بعد فترة قصيرة من ولادته.

قرّر لوك بحذر أن إميلي تكذب، لأن الخيار البديل يعني أن المرأة التي اعتاد أن يأتمنها على أسراره خلال السنوات الأخيرة القليلة الماضية تعمدت خداعه.

وقفت إميلي تراقب ابنها النائم لفترة طويلة بعد أن اندفع لوك مسرعاً خارج غرفة الحضانة. فكرت بحزن أن جان كلود مسكين بريء، فهو عالق في مرمى النيران المتبادلة بين والديه، فيما هو أغلى من لديهما في هذا العالم. لوك يحب ابنه حقاً! لاحظت إميلي بوضوح رابط الحب المتبادل بينهما منذ اللحظة الأولى التي رفع فيها لوك ابنه بين ذراعيه. هل كذبت روبين عندما أصرّت منذ سنة على أن لوك لا يريد أية علاقة تربطه بزوجته وابنه؟ لو كانت السيدة باتيرسون موجودة هناك، لبذلت إميلي جهداً أكبر كي تدخل الشقة التي كانت عملياً منزلها، لكن لم يكن هنالك أي أثر لمدبرة المنزل ولا للوك نفسه. يومها ظهرت روبين واثقة جداً من نفسها، وصاعقة الجمال جداً بالمقارنة مع إميلي الشاحبة الوجه، لذلك صدقت إميلي ببساطة أن زوجها فضّل عارضة الأزياء

السابقة تلك عليها.

انسلت إميلي خارج الغرفة متنهدة، فألم الرأس الذي أصابها خلال العشاء استقر الآن على شكل ألم مزعج فوق عينيها. إنها عادة تكره تناول مسكنات الآلام، لكنها الليلة تحتاج إلى شيء يخفف الألم المحيط بقلبها. لاحظت في وقت سابق خزانة العقاقير الموجودة في الحمام الملاصق لغرفة النوم الرئيسية، فبحثت بسرعة عن حبوب مسكنة قبل أن يجدها لوك.

ابتلعت إميلي حبة الدواء. مسحت تبرجها عن وجهها، وأفلتت شعرها المعقود فسقط نزولاً على ظهرها، ثم خرجت بسرعة. الغرفة التي نقلت إليها سيمون ملابسها تقع في آخر الرواق، وهي أصغر من غرفة النوم الرئيسية، لكنها جيدة. ضغطت على مفتاح النور بحذر، لكن الغرفة بقيت معتمة باستثناء ضوء القمر الفضي المتسلل من بين شقوق الستائر. أطلقت شتيمة عندما اصطدمت قدمها بشيء ما. فكرت أن الأوان فات الآن على تغيير المصباح. أغلقت إميلي الباب، ثم سحبت خزانة أدراج الملابس الثقيلة، فوضعتها خلف الباب لصدّه. لابد أن لوك يفترض أنه سيجد زوجته المطيعة نائمة في غرفة نومه. إن كان يعتقد أنه حر في التنقل بينها وبين عشيقته، فهو على وشك أن يصاب بصدمة.

- لابأس عزيزتي! أنا أسير مطيع. لست بحاجة لأن تحتجزيني هنا في الداخل!

أجفلت إميلي، وأطلقت صرخة، فيما أخذ قلبها يدق بقوة في صدرها، وهي تحدق نحو صاحب القامة الطويلة المهددة في مدخل الباب المؤدي إلى الحمام المتصل بغرفة النوم.

- كيف دخلت إلى هنا؟

تحول عدم تصديقها إلى مزيج من الحنق والاحراج، عندما أدركت أن لوك كان يراقبها. أضافت بحلاوة: «لابد أنك أضعت سبيلك... غرفتك تقع في الجهة الأخرى من الرواق».

جاهدت إميلي لتظهر التهكم نفسه الذي استخدمه لوك، ثم تابعت:

«هل تعرف أين يمكنني أن أجد مصباحاً جديداً؟».

لم يجبها لوك، بل تمشّى بخطوات واسعة عبر الغرفة، فأضاء النور المجاور للسرير بحيث غمر الغرفة وهج خافت. ابتسامته الهادئة أرسلت ارتعادة على طول عمودها الفقري، عندما رأته يحمل بيده المصباح الذي أزاله من مكانه في السقف. أغضبها صمته، مع ذلك لم تقدر على سلخ نظراتها عنه. بدا لها كأنما إرهاقها قد اختفى، فأحست بحيوية غريبة، إذ أخذت تخزها خلاياها العصبية بإحساس من الانتظار.

- أنا واثقة أن لديك أسباباً تجعلك تتطفل في الظلام، لكنني مرهقة، ولست في مزاج يسمح بممارسة الألاعيب.

قالت إميلي ذلك باختصار، فزمّ لوك فمه.

- لست أنا من يمارس الألاعيب، أنت من جاءت إلى الغرفة غير الصحيحة. بما أنك زوجتي، لديك واجبات محددة عليك أن تؤديها.

- أنا سوف أنام باكراً، لكنني واثقة من أنك لن تواجه أية مشكلة في ملء الفراغ الشاغر في غرفة نومك. أما بالنسبة إلى تأدية واجباتي، فقد فعلت ذلك بعد ظهر هذا اليوم. أنت حقاً لا تظنني استمتعت بالأمر. أليس كذلك؟

اشتعل وجه إميلي عندما تشدّق لوك قائلاً: «لا، عزيزتي! ما كنت لأحزر أبداً من تجاوبك بين ذراعي، أنك كرهت كل دقيقة من علاقتنا الحميمة».

- حسناً! كرهت ذلك، ولست أخطط للمزيد.

شعرت إميلي أنها في موقف حرج بما أن خزانة الأدراج تصدُّ الباب، ولوك يسد طريقها نحو الحمام. أطلقت تنهيدة ساخطة، وقالت: «سأكون ممتنة لو تركتني بسلام. كان يوماً عصيباً جداً».

تساءل لوك بوحشية، كيف يمكنها أن تبدو سريعة العطب وحساسة إلى درجة مؤلمة؟ إن طبيعتها الحساسة جداً لا تتوقف أبداً عن التأثير فيه. كانت عينا إميلي قد اسودّتا فصارتا شبيهتين بلون سماء منتصف الليل، وبدتا كبيرتين جداً على وجهها الذي يشبه شكل القلب. أما

شعرها فانسدل على كتفيها، وكاد يصل إلى خصرها. قاوم لوك رغبته الملحة بأن يشبك أنامله في خصلاته الكستنائية، فيجذبها نحوه. اللعنة! إنها زوجته، وهو يرغب بها بنهم لكنها تحاول وضع نفسها خارج متناوله. أتراها تخاف منه؟ تلك الفكرة جعلت لوك يتمهل للحظة، لكن كل غريزة من غرائزه أخبرته أن ما يجعلها تنكمش منه ليس الخوف. إنه يعرفها حق المعرفة، ويعرف التوق الحاد الذي يقبض عليها، إنها تريده بشدة كبرى، وهو يريدها أيضاً. لكن إقناعها بهذه الحقيقة يتطلب منه صبراً لا يقدر عليه حالياً.

- أنا زوجك... الرجل الذي وافقت على أن تحبيه وتكرّميه وتطيعيه إلى الأبد، هذا إذا ما كنت أذكر جيداً كلام المراسم القديمة التي اخترتها بنفسك، عزيزتي. إلى أن يفرقنا الموت... أليس هذا هو العهد الذي قطعناه يوماً؟

- نحن أيضاً تعهدنا بأن نقف إلى جانب بعضنا البعض في المرض وفي الصحة، لكنك خرقت ذلك العهد لحظة علمت بأمر حملي.

قالت إميلي ذلك بإيجاز.

غمغم لوك: «متى قصرت في منحك ما يكفي من الاهتمام؟ اطمئني! أنا لن أرتكب الخطأ نفسه مرة ثانية، عزيزتي. لن تكون هنالك غرفتان منفصلتان لنا، ولن نفعل شيئاً يجعل الإشاعات تسري بين الموظفين. سيمون للتو أمضت نصف النهار وهي تنقل أغراضك بين الغرفتين».

عندما سمعت إميلي ذلك اندفعت لتفتح باب الخزانة، وكاد مزاجها يفور غلياناً عندما وجدتها فارغة.

صرّح لوك قائلاً: «أنت زوجتي، وسوف تشاركينني سريري».

العزم في نظراته أخبر إميلي أن لا خيار آخر أمامها: «يا لي من محظوظة!».

قالت ملاحظتها الساخرة تلك وهي تجاهد لإخفاء ذعرها، فيما أزاح لوك خزانة الأدراج بعيداً عن الباب، ثم اتجه نحوها.

- هل سألت روبين لما تكتمت على زيارتي إلى شقتك؟

طالبته إميلي بذلك وهي غير قادرة على إخفاء لمحة اليأس في صوتها، فيما قام لوك فجأة بحملها بين ذراعيه متجاهلاً الضربات التي وجهتها إلى صدره بتصميم وإصرار.

- لا داعي لذلك، فأنا أعلم أنك تكذبين.

جاء صوت لوك واثقاً جداً، لدرجة أن إميلي جمّدت يديها، فحدقت بوجهه الذي كان على بعد إنشات فقط من وجهها. فسّر لها لوك ببرودة: «تحققت من مفكرتي. أثناء ذلك الوقت الذي تقولين إنك اصطحبت فيه جان كلود إلى شقتي، كنت مسافراً في أفريقيا الجنوبية، جزئياً لأجل العمل، ولأمضي فترة عيد الميلاد مع أصدقاء لي تفهّموا مدى يأسي لأنني لا أعرف شيئاً عن مكان وجود ابني».

اشتدت قبضة أنامل لوك حولها، فأجفلت إميلي عندما ركل باب غرفة نومه، وعبر بخطوات واسعة نحو السرير الضخم. تابع لوك بجرأة: «شقة شيلسيا بقيت مقفلة طيلة شهر كانون الأول. مدبرة منزلي ذهبت إلى يوركشاير لتزور عائلتها، أما روبين فاستقلت الطائرة من حيث كنا في دوربان لإجراء لقاءات العمل، وقصدت والديها في الولايات المتحدة الأميركية. هنالك احتمال بأن تكوني قد ذهبت إلى هناك، لكن لِم عساك تبتكرين الهراء المتعلق بمقابلتك لروبين؟ لماذا تُراك تصرين على جعلها تبدو كاذبة؟».

- لِم تراني قد أبتدع القصة أصلاً؟

دافعت إميلي عن نفسها عندما رماها لوك على السرير بقوة. هزّ لوك كتفيه، فيما حذّرتها لامبالاته بأنه بدأ يملّ من هذا الحديث.

- إذا كنت تصرّين على هجري، فسيتوجب عليك أن تخوضي معركة لنيل حضانة جان كلود. ربما ظننت أنك ستعززين موقفك إذا ما قلت إنك حاولت أن تتواصلي معي لتسمحي لي برؤية ابني!

صرخت إميلي قائلة: «ذهبت فعلاً إلى الشقة، وقابلت روبين حقاً!».

تلوى في أعماقها الفزع بسبب رفضه لأن يصدقها. كانت الغرفة مضاءة بأنوار علوية مخفية، بالإضافة إلى عشرات الشموع، وضعت في مجموعات على الموقد، وألقت ظلالها على الجدران. بدت الغرفة رومنسية جداً، وكأنها صُممت خصيصاً للعشّاق، لكن لم يكن هنالك أي شيء محبب بخصوص قساوة تعابير وجه لوك، فالتوهج البادي في عينيه حذّر إميلي بعزمه وتصميمه على الحصول على حقوقه الزوجية.

قالت إميلي: «أنا لست كاذبة».

كرهت نفسها لأن صوتها أصبح كذلك، ولأن عينيها تركزتا بإرادتهما الخاصة على صدر لوك.

غمغم لوك بنعومة: «ألست ترغبين بأن نستعيد لحظاتنا الحميمة معاً الليلة، عزيزتي؟».

- أفضل أن تُقلع أسناني كلها على أن أفعل ذلك.

- أنت كاذبة!

أطبقت إميلي أسنانها بحدة، بعد أن ضاقت ذرعاً بغروره وبابتسامته التي تدل على ثقة بالغة بالنفس.

فكرت بحذر، كم هو رائع! عندما عانقها قبل ساعات بدت إميلي مأسورة بأحاسيسها، فلم تحظ بالوقت الكافي كي تتمعن بلوك جيداً. أما الآن وفيما هو واقف أمامها بتراخ، تمكنت من تأمل رشاقة جسمه وقوة عضلاته. ارتعد جسدها الخائن مظهراً مشاعرها البدائية. لم تتدخل غريزة إميلي في الحفاظ على نفسها إلا عندما مدّ لوك يده ومرّرها من خلال شعرها.

- ألم تكتفِ بما حصل بيننا بعد ظهر هذا اليوم؟

تذمرت إميلي، فيما أصبح الكلام أكثر صعوبة عليها مع اقتراب لوك منها.

- أريد زوجتي دوماً إلى جانبي.

رسم لوك خط فك إميلي بنعومة مستخدماً إبهامه، ثم حركه إلى الأعلى باتجاه خدها.

- لكن، لِم أنا؟

أفلتت الكلمات من فمها كانتحاب يائس. ظهرت لمحة من الألم في صوتها وهي تتابع: «أنت لست معجباً بي حتى، كما أنك حتماً لا تثق بي. ألا تكفيك روبين؟».

كان لوك قد أنكر بعنف وجود أية علاقة غرامية مع مساعدته الشخصية، لكن شكوك إميلي السابقة عادت وظهرت لدى معرفتها أنه يصدق روبين ولا يصدقها. تجاهلها لوك، لكن ذراعيه استقرتا على كتفيها في عناق لطيف صعقها بمدى رقته. كانت إميلي قد جهّزت نفسها لعناق وحشي، لكن نعومة عناقه شتت سيطرتها الواهية على أحاسيسها. هذا هو لوك، حب حياتها والرجل الوحيد الذي رغبت به يوماً. كيف يمكنها أن تنكر ذلك في حين أن كيانها كله يهتف توقاً إليه؟

أجابها لوك: «لأنك استثنائية. أنا لم أنسَ يوماً عبيرك وملمس بشرتك التي تبدو كالحرير تحت أناملي. أنت موجودة هنا...».

همس لوك بذلك فيما بدا إحباطه واضحاً في نبرته بسبب ضعفه وهو يمسك يدي إميلي بملاصقة قلبه. ثم تابع: «... ويبدو أنني لست قادراً على إخراجك من هنا، مهما حاولت جاهداً».

إنه لا يثق بها، ويرفض أن يصدق روايتها بخصوص ذهابها إلى شقته مع الطفل، كما أنه حتماً لا يحبها. لكن الآن بالذات لم تكن إميلي تأبه لأي من ذلك. اجتاح لوك أحاسيسها، فداس على عزة نفسها، بحيث لم يبق لديها أي شيء سوى التوق الشديد إليه.

استنشقت إميلي نفساً حاداً عندما انزلقت يدا لوك نزولاً فوق ظهرها. ثم جذبها بقوة ليعانقها. أرادت أن تقول شيئاً ما، وأن تخبره مرة ثانية أنها لم تكذب بخصوص أخذ جان كلود إليه ليراه، لكن كلماتها ضاعت تحت وطأة عناقه الذي خدّر أحاسيسها، وطرد كل شيء آخر من ذهنها، باستثناء هذا الرجل وهذه اللحظة.

بعد لحظات غابا معاً في غمامة رائعة من الأحاسيس الصاخبة.

- أترين؟ لم يكن ذلك سيئاً جداً. أليس كذلك، صغيرتي؟

كانت إميلي على حافة الاغفاء، لكن شدت انتباهها نبرة الانتصار البادية في صوت لوك، ففتحت عينيها فيما غمرها الشعور بالاذلال المسبب للغثيان. بالطبع! هو يشعر بالانتصار، لأنها سهّلت الأمر عليه جداً، فقد انهارت دفاعاتها بعد أول لمسة من يديه على بشرتها. تراجعت بعيداً عن دفء لوك الذي ما زال حتى الآن قادراً على التأثير فيها.

- هل تأمل أن أمنحك علامة على عشرة من أجل قدراتك التقنية، أم أنك تنتظر التصفيق؟

طالبته إميلي ببرود بينما جلست في السرير ثم قالت: «لم يكن الأمر سيئاً جداً، لكنني أفضل عدم تكرار التجربة».

بعد ذلك الكلام غاصت إميلي تحت أغطية السرير، وخبأت وجهها الأحمر الحامي، فيما صلّت كي لا يلمسها لوك من جديد، لأنها حتماً ستنهار. أما لوك فحذّرها بنعومة قائلاً: «فكري ملياً يا عزيزتي قبل أن تضعي حاجزاً بيننا، لأنني أعدك أنني لست أنا من سيزيحه».

- ممتاز! إذاً سوف أحظى بليلة جيدة من النوم من دون أن أخشى بأن تشتّ يداك إلى جهتي من السرير. عمتَ مساءً.

أطلق لوك ضحكة مكتومة خافتة قائلاً: «تصبحين على خير، يا ملاكي. نامي جيداً!».

* * *

لفحت أشعة الشمس وجه إميلي فجعلتها تفتح عينيها. عبست وهي تحدق بأرجاء محيطها غير المألوف. أدارت رأسها بحدة، فإذا المساحة على الجانب الآخر من الوسادة الحريرية خالية. اتجهت نظراتها نحو ساعة الحائط، فشعرت بالصدمة. تعثّرت وهي تنهض بسرعة من السرير، لتركض نحو الحمام المتصل بغرفة النوم.

كيف بحق السماء تراها نامت حتى الساعة العاشرة صباحاً؟ ولِم لم يوقظها أي شخص؟ انتقلت أفكارها على الفور نحو جان كلود، فصلّت بأن يكون سعيداً مع ليز.

أخذت إميلي حماماً في وقت قياسي، ثم ألقت نظرة سريعة على خزانة ملابسها، فاكتشفت أنها لا تمتلك ثياباً مناسبة ترتديها كي تلعب دور سيدة القصر، لكن عفريتاً شيطانياً ما جعلها ترتدي سروالاً من الجينز الباهت اللون الضيق جداً، مع قميص قطنية زهرية فاقعة اللون، كتب عليها شعار يقول: «الآنسة الصغيرة الشقيّة». أقرت إميلي بتكشيرة أن ملابسها ليست أنيقة، فيما عقدت شعرها إلى الخلف على شكل ذيل الفرس. توجهت بعد ذلك نحو الدرج!

عندما دخلت إميلي إلى غرفة الطعام ولم تجد أي أثر لابنها أو لعربته، سألت بتردد، فيما تهاوت شجاعتها تحت نظرات لوك المحدّقة إليها ببرودة: «أين هو جان كلود؟».

- أخذته مربيته في نزهة إلى الحديقة، فقد بدأ يتململ وينفد صبره.

- لا يمكنني أن أصدق بأنني غفوت لوقت متأخر كهذا. أنا أستيقظ عادة عند الفجر.

- آه!

بدا من نبرة لوك أنه لم يصدق أنها استيقظت يوماً قبل موعد الغداء، فظهر العبوس على وجه إميلي. لقد أمضت الشهور الستة الأولى من عمر ابنها وهي تستيقظ كل أربع ساعات لتطعمه، لأنه كان طفلاً متطلباً جداً. لم تفلح إلا في الأسابيع القليلة الماضية في إقناع جان كلود بأن ينام طيلة الليل. أجابته إميلي بكلمات لاذعة: «من الواضح أنك لم تعرف قط ما معنى أن تمضي الليل وأنت تتمشى جيئة وذهاباً عبر أرض غرفة النوم عند الساعة الثالثة صباحاً في محاولة لتهدئة الطفل».

إلا أن لوك راقبها بثبات من فوق جريدته: «لا! لم أمنح الفرصة أبداً».

أدركت إميلي أن التصرفات العدائية استؤنفت مجدداً بينهما، بينما جلست في مكانها إلى الطاولة، وابتسمت لسيمون بامتنان حين وضعت أمامها كوباً من القهوة الساخنة.

- هنالك خبز وفطائر طازجة، أم أنك تفضلين أن تطهو لك سيلفي

شيئاً ما؟

غمغم لوك بذلك، أما إميلي فهزّت رأسها نفياً بسرعة.

- القهوة جيدة.

- يجدر بك أن تأكلي.

جادلها لوك بذلك، ثم توقف وقال: «على الرغم من ذلك، ربما لا يجدر بك أن تكثري الأكل وإلا سوف تنفجرين فعلاً خارج ملابسك، فهي الآن لا تترك الكثير للمخيلة».

انتفضت شفتا لوك، فيما استقرت نظراته على الشعار المدون فوق صدرها، وارتعبت إميلي عندما تجاوب جسدها مع نظراته بوضوح.

- أما مخيلتي فهي تعمل بجموح.

علّق لوك بذلك بعذوبة، لكن إميلي لم تجد أي رد يمكنها أن تنطق به. امتد الصمت بينهما، وبدا حاداً جداً.

- حسناً! هل هنالك سيارة احتياطية متوفرة يمكنني أن أستخدمها؟

سألت إميلي ذلك أخيراً، فنظر لوك إليها مشككاً.

- أخشى أنه ليس هناك من واحدة.

لكنها لم تثق بابتسامته. ذكّرها لوك بالتمساح، فهذا الأخير يبدو هادئاً متربصاً في اللحظات التي تسبق إطباق فكه الضخم حول فريسته.

- إلى أين تريدين الذهاب؟ كل ما تحتاجينه أنت أو جان كلود موجود هنا في القصر.

أجابته إميلي قائلة: «ما زلت أرغب في الذهاب إلى القرية، أو ربما زيارة البلدة الأقرب إلى هنا من حين إلى آخر. سوف أترك جان كلود مع مربيته، لكن لا يمكنك أن تبقيني أسيرة في القصر إلى ما لا نهاية».

غمغم لوك قائلاً: «أنا أشعر بالفضول لأفهم لِم أنت متحمسة جداً لتغادري، إلا إذا كان لذلك علاقة بفكرتك المجنونة المتعلقة بتأسيس عمل خاص بك».

وخزتها كلمات لوك، فشعرت إميلي أن مزاجها يلتهب. إنه لا يعتقد أنها قادرة على أن تفعل ذلك. لكنها عازمة على أن تبرهن له العكس.

- أنا حتماً أود أن أبدأ بالبحث عن مكان للعمل أو نوع من المسكن حيث يمكنني أن أعمل. لا داعي لأن يكوّن مكاناً مميزاً.

عبس لوك فيما تابعت إميلي كلامها قائلة: «لكن أريده أن يكون واسعاً بما يكفي حتى يتسع لبضع طاولات مخصصة للتفصيل والقص، ولماكينات الخياطة».

قال لوك باختصار: «أنت إذاً تفكرين في السير قدماً بالمشروع. دعينا نأمل ألا يشعر جان كلود بعدم الاستقرار عندما تهجرينه».

- لا نية لدي على الإطلاق بأن أهجره!

قفزت إميلي وقد شعرت بالسخط، استدارت إلى جهته من الطاولة لتقول: «إن أي شيء سأبدأ به حتماً سوف يتلاءم مع جان كلود. أخبرتك أنه سيحلّ دوماً في المرتبة الأولى بالنسبة إلي».

- في هذه الحالة، ألا يجدر بك أن تركزي مجهودك على الاستقرار في القصر بحيث يمكننا نحن الثلاثة أن نمضي وقتنا سوياً كعائلة واحدة؟

صار صوته فجأة ناعماً مخملياً، فابتلعت إميلي ريقها عندما رأت الدفء في عينيه. بدا لوك وسيماً في سروال الجينز الباهت الذي يرتديه، مع الكنزة المحاكة من الصوف الأسود.

- ألن تذهب إلى العمل؟ لابد أن هنالك شيئاً طارئاً في الناحية الأخرى من العالم يحتاج إلى اهتمامك.

ردّ لوك بتكاسل قائلاً: «أخبرتك أنني أتعلم توكيل الأعمال إلى موفدين من قبلي. بما أنني اجتمعت حديثاً مع ابني، فأنا لا أرغب بتركه... أو ترك أمه».

أضاف لوك عبارته الأخيرة بنعومة، فتقلصت معدة إميلي. غمغمت باستغراب: «أنت فقط تقول هذا لكي... لكي تجعلني أغير رأيي».

لكنها لم تقوَ على المقاومة عندما قبض لوك على يدها، فجذبها لتجلس على ركبته.

- أنت محقة تماماً. أنا أنوي أن أبذل قصارى جهدي كي أجعلك سعيدة هنا.

حامت نظرات لوك فوق وجهها، فأغمضت عينيها فيما حاول دماغها استيعاب تصريحه المذهل. إنها لا تستطيع أن تسمح له بالتقرب منها في حين أنها بحاجة لأن تكون حذرة منه. لكن بشكل ما تسلل لوك متخطياً دفاعاتها، فأطلقت إميلي شهقة صغيرة عندما احتك ذقنه برفق بجبينها. رفعت أهدابها لتجده يحدّق نحوها بتعابير مثيرة للفضول في عينيه الرماديتين.

سألته: «لماذا...؟ لماذا ترغب بجعلي سعيدة؟ فنحن نمقت بعضنا البعض، كما أننا لا نثق ببعضنا. لماذا تحكم علينا بالبقاء في زواج خال من الحب؟».

- أنا لا أصف زواجنا بأنه خال من الحب، عزيزتي.

قال لوك ذلك بهدوء، فطاف قلب إميلي للحظة وجيزة رائعة. ما الذي يقوله؟ أتراه يحبها؟ ما لبث أن تابع: «كلانا نحب جان كلود. ولصالح ابننا أظن أنه يجدر بنا أن نحاول وضع الماضي خلفنا، وإصلاح الصدوع التي ألمّت بزواجنا. إنه يستحق طفولة مستقرة وسعيدة، حيث يحبه ويرعاه كلا والديه».

أصابها الاحباط الشديد. بالطبع هو لا يحبها. هو فقط تكبّد عناء البحث عنها لأنه أراد أن يجد ابنه.

- من الطبيعي أن يكون جان كلود هو السبب الوحيد الذي يدفعنا للبقاء سوياً، لكنني لست مقتنعة بأن ذلك سيفلح.

- لكن يمكننا أن نحاول. أرجوك، عزيزتي!

علمت إميلي أنه يجدر بها أن تبتعد كي تتجنب عناقه. لكنها عوضاً عن ذلك لم تقوَ إلا أن تنحني إلى الأمام كي تغلق الفجوة الموجودة بينهما، وقد أفلتت منها أنّة خافتة عندما أسرها لوك في إطار ذراعيه. أخذ لوك الأمر بروية، كما لو أنه أراد أن يستمتع باللحظة، أما هي فصارت عاجزة عن المقاومة. لفّت ذراعيها حول عنقه، وجذبته ليدنو منها أكثر. أحسّت إميلي بيده تنسلّ خلف شعرها، فألقت رأسها على كتفه باستسلام فيما ازداد عناقه عمقاً.

عندما رفع لوك رأسه أخيراً، همس قائلاً بالقرب من أذنها: «أترين، يا صغيرتي؟ لم ينته الأمر بيننا. لا يمكنه أن ينتهي أبداً. نحن ندين بهذا لنفسينا، وليس فقط لجان كلود. فلنعلن الهدنة».

أومأت إميلي برأسها، فيما شعرت أن قلبها ممتلئ بحبه ما يمنعها من الكلام. لوك لا يريدها في القصر فقط لأجل مصلحة جان كلود. يبدو أنه حقاً يريد لزواجهما أن ينجح، وملأها الأمل من جديد.

جعلت كلمات لوك أجراس التنبيه تقرع في رأس إميلي حين قال: «إذاً! لا مزيد من الكلام بخصوص تأسيس عمل، هممم؟ نحن بحاجة إلى تكريس وقتنا بالكامل لبعضنا البعض، وبالطبع لابننا».

- لوك...!

ابتلعت إميلي إحباطها عندما دخلت ليز وهي تحمل جان كلود من الحديقة. أشرق وجه الطفل عندما لاحظ والده.

- بابا!

صرخ الطفل وقد بدا فخوراً بسبب الكلمة الثانية التي صار يتقنها، أما إميلي فأدارت رأسها بعيداً بسبب الفزع. قال لوك إنه يرغب بمنح زواجهما فرصة أخرى، وليس فقط من أجل ابنهما. يجدر بهذا الخبر أن يغمرها بالسعادة. لكن يبدو أن لوك لا يريد علاقة متساوية. إنه يريد أن يمتلك جسدها وروحها. هل هي قادرة على القيام بذلك؟ هل يمكنها أن تتناسى أحلامها بدمج المهنة مع الأمومة، فتجعل من دورها كزوجة للوك أهم شيء في حياتها؟ هي لا تستطيع أن تنكر الحقيقة؛ لوك بالنسبة إليها أهم من أية مهنة، وهي قد تضحي بسرور بأي شيء فقط لو أنه يهتم فعلاً لأمرها. حسناً! سوف تجعله يحبها. أقسمت إميلي بذلك بوحشية، بينما انسلّت خارجة من الغرفة.

لوك ليس محصناً تجاهها. سوف تفوز بثقته، وبذلك سوف تربح قلبه.

٧ - هدنة مؤقتة

- سابين كانت خارقة الجمال. أليس كذلك؟

تردد صوت روبين البارد عبر البهو، فغرق قلب إميلي عندما جرجرت عينيها بعيداً عن الصورة المعلّقة فوق الدرج. وقفت روبين على مصطبة الدرج العلوية، فيما بدت أنيقة في قميصها البيضاء مع السروال الكتاني الملائم. فكرت إميلي أن روبين ليست أكثر نقاء من الثلج. إنها كاذبة، ومن المعذب المؤلم أن لوك يثق بها.

- إنها... بل كانت...

عدّلت إميلي كلامها بتسرع، ثم تابعت قائلة: «جميلة إلى حد غير معقول. لكن... من هي؟».

تقوس حاجبا روبين المرسومان بدقة، دلالة على تفاجئها، وقالت: «أتعنين أنك لا تعلمين؟ سابين كانت زوجة لوك... السيدة فايلون الأولى. افترضت أنه أخبرك».

تابعت إميلي التحديق بها بصمت وذهول، وهي غير قادرة على إخفاء صدمتها الحادة.

- لم يذكر لي أبداً أنه كان متزوجاً من قبل.

أحست كما لو أن قلبها انتزع من صدرها. لماذا لم يخبرها لوك قط؟ كانت زوجته جميلة تسلب الأنفاس، أما هيئتها المتعالية فتؤكد ملاءمتها لدور سيدة القصر. أدركت إميلي أن أية مقارنة بينهما ستجعلها تبدو مفتقدة لكل ما كانت تمتلكه زوجته السابقة.

- كيف ماتت؟

همست إميلي وهي تقاوم موجة الغثيان التي اكتسحتها.

أخبرتها روبين قائلة: «سابين بريان كانت عارضة أزياء، ملهمة أحد المصممين المشاهير لدى إحدى أولى دور الأزياء الفرنسية. تابعت طريقها كي تحظى بمهنة ناجحة كممثلة. لوك وقع في غرامها منذ اللحظة الأولى. أحبها حباً جماً، وصارا الزوجين الفرنسيين المتألقين الشهيرين، ما جعل موتها أكثر مأساوية».

- ما الذي حصل...؟

أسرّت لها روبين قائلة: «عانت من حمل خارجي. لست واثقة حتى إذا ما كانت سابين تعلم بحملها، إلى أن انهارت متألمة، فيما كانت ولوك في إجازة على جزيرة نائية بالقرب من تايلندا. كان الأوان قد فات عندما وصل الفريق الطبي، إذ توفيت سابين على الفور، أما لوك فبدا مشتت التفكير بالكامل. لا أظنه تخطى الأمر فعلاً أبداً. أحبها كثيراً، وأقسم أنه لن يتزوج مجدداً على الإطلاق».

أشارت إميلي بصوت أبح: «لكنه تزوجني أنا».

رمتها روبين بنظرة ازدراء: «نعم، لكن ذلك أمر مختلف. كانت له أسبابه...».

توقفت روبين للحظة قبل أن تغمغم بنبرة متعاطفة: «آه، عزيزتي! أخشى أنني قلت أكثر مما يفترض بي أن أقوله. أقر أنني فوجئت عندما ظهرتِ من جديد. ظننت أنك استوعبت الرسالة قبل الآن».

- أية رسالة؟ لوك أحضرني إلى هنا. أنا لم أطلب القدوم. هو يريدنا أن نمنح زواجنا فرصة ثانية.

رنّمت روبين بنعومة تقول: «حسناً! يمكنه أن يقول هذا. أليس كذلك؟ عليه أن يأخذ ابنه بعين الاعتبار. إنه مستعد لأن يفعل أي شيء من أجل جان كلود، بما في ذلك إبقاؤك إلى جانبه، حتى يجمع ما يكفي من الإثباتات على عدم كفاءتك كوالدة له، وهذا من شأنه أن يحسم الحكم بحضانة الطفل لصالحه».

- أتساءل أي نوع من الأدلة كان يجمع ليلة أمس؟

أخفى مزاجها الذي راح يغلي على مهل السقم الذي أحست به.

- ما كنت لأتكل على العلاقة الجسدية حتى أتعلق بلوك. جربتِ الأمر من قبل، ولم ينجح. لوك رجل متطلب، وأفترض أنه يحتاج إلى التغيير من حين إلى آخر.

- وهل هذا هو الوقت الذي يفترض به أن يتحول إليكِ أنتِ؟

بالرغم من شعورها بعذاب مرير في داخلها، رفضت إميلي أن تستسلم من دون مقاومة.

- أنت التزمت الصمت عمداً حيال زيارتي إلى شقة لوك في شيلسيا. أليس كذلك؟ ما الذي ستكون عليه ردة فعل لوك برأيك لو اكتشف أن مساعدته البالغة الفعالية منعته فعلياً من التلاقي بابنه؟

تلاعبت ابتسامة خفيفة على شفتي روبين وهي تقول ببرود: «أظنك ستواجهين صعوبة بالغة لتبرهني ذلك. تعود علاقتنا أنا ولوك إلى زمن بعيد. إنه يثق بي. هل أنت قادرة على قول الأمر نفسه إميلي؟».

لم تستطع إميلي الرد ببساطة على ذلك السؤال، ولم يكن أمامها سوى الاعتراف المذل بأن لوك لا يثق بها، فاتسعت ابتسامة روبين: «أنا في طريقي الآن للبحث عن لوك. عليك أن تعذرينا، فلدينا ساعات من العمل معاً. إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

استفسرت روبين، فيما جالت نظراتها كالأفعى فوق قميص إميلي القطنية العصرية. قالت متابعة: «يبدو أنك ذاهبة إلى غرفة الحضانة!».

أحست إميلي أن عليها أن تتحرك قبل أن تستسلم لرغبتها بأن تدفع تلك الشقراء الساقطة عن الدرج، فحثت خطاها صعوداً.

حقيقة كونه كان متزوجاً من قبل هو السرّ الأكثر تشتيتاً لها. فكرت بذلك بينما تكورت كالطابة وسط السرير. أهذا هو السبب الذي دفعه إلى الإقامة في لندن بعد زواجهما، بدلاً من القصر الذي كان منزله مع الشقراء المذهلة سابين؟ لابد أنه يقارنها مع زوجته الأولى الرئعة الجمال في كل مرة ينظر إليها. أتراه يتمنى لو كانت سابين هناك الآن أو... آه... يا إلهي! أتراه يغمض عينيه عندما يقيم علاقة حميمة معها، متخيلاً أنها زوجته الأولى؟

جعلتها هذه الفكرة تشعر بالسقم، فضغطت أصابعها على فمها.

فجأة بدا لها موقف لوك المتغطرس منطقياً، كذلك حقيقة أنه لم يصرح قط عن حبه لها. كيف يمكنه أن يحبها في حين أنه ما يزال في حداد على المرأة التي أحبها حباً جماً؟ أقرت إميلي بيأس أن سابين هي شخص يستحيل تقليده. أما هي، فعلى الأرجح أن لوك يتحملها فقط لأنها أنجبت له ابناً. لم تدرك أن لوك لحق بها إلى غرفة النوم إذ كانت قد طمرت وجهها بين ذراعيها، إلى أن أحسّت بالفراش يغوص، فنفضت رأسها وأدارته إلى الناحية الأخرى، حيث وجدت لوك جالساً بالقرب منها.

- يا إلهي، إميلي! ما الخطب، صغيرتي؟ هل أنتِ مريضة؟

- نعم، أنا مريضة. أشعر بالسقم حتى الموت.

قذفته إميلي بهذا الكلام، بينما فركت عينيها بيدها، فلاحظت آثار الكحل على أناملها. لا عجب أن لوك يحدق فيها بارتعاب.

- ابتعد عني!

زمجرت إميلي بذلك، فيما تراجعت بعيداً عن لوك عندما مدّ يده ليزيح شعرها عن وجهها الرطب. ازداد عبوس لوك، وبدا مرتبكاً: «ما الذي حدث للمرأة المبتسمة التي وافقت منذ نصف ساعة بأن تمنح زواجنا فرصة ثانية؟».

صرخت إميلي في وجهه قائلة:

- سابين! سابين هي الخطب. روبين استمتعت كثيراً في تقديمها الشرح لي بخصوص زوجتك السابقة. هل يمكنك أن تتصور كم شعرت أنني غبية؟ أنا زوجتك... اللعنة! لكن موظفوك يعرفون عنك أكثر مني.

شحب لون بشرة لوك لدى ذكر اسم زوجته الأولى، فوقف ومرّر يده من خلال شعره، قائلاً ببرود: «حسناً! كنت متزوجاً من قبل. هذا ليس بالأمر الهام».

حدقت به إميلي بذهول، غير قادرة على وقف الدموع المنسابة على

خديها.

- ليس بالأمر الهام؟! هذا يغير كل شيء. ظننتني مميزة لديك... ظننت أن زواجك مني يعني أنني شخص هام بالنسبة إليك.

نشجت إميلي بذلك. كل الذكريات التي تعلقت بها منذ يوم زفافهما مروراً بشهر عسلهما الوجيز في باريس، بدت الآن عديمة القيمة؛ فعل لوك ذلك مرة من قبل. همست بانكسار: «شعاع الأمل الوحيد الذي كان لدي في ما يخص علاقتنا هو أنك اخترتني أنا كزوجة لك. لكن تبين أنني آتي بالدرجة الثانية. أشعر كما لو أنني الغرض غير المفيد الذي لا يريده أي شخص».

بدت عيناه الرماديتان باردتين وخاليتين من المشاعر إلى درجة أن إميلي أحست بقلبها يتمزق وهو يقول: «لا تكوني سخيفة! بالطبع أنا أريدك».

- نعم، لأجل علاقة زوجية مناسبة عندما تكون موجوداً، وليس هناك من شيء أفضل تقوم به.

- تلك كذبة.

- لماذا إذاً لم تخبرني عنها؟ لا تقل لي إنك نسيت الأمر سهواً.

أضافت بمرارة: «اللعنة! روبين أخبرتني كم أحببتها. ألهذا السبب التزمت الصمت؟ هل ظننت أنني سأشعر بالغيرة منها؟».

- إن كان هذا هو السبب، فأنا محق. أليس كذلك؟

وبّخها لوك ساخراً، وقد التمعت عيناه وهو يحدق بوجه إميلي الملطخ بالدموع. إنه المسؤول عن هذا الدمار. إنه لم يتعمد إيذاءها مطلقاً. أراد أن يحميها، لكن إميلي أساءت تفسير نواياه الحسنة كالعادة. قال لها بهدوء: «سابين توفيت في ظروف مريعة. إنه أمر لا أجد من السهل التكلم عنه، وبالكاد يمكنني أن أبوح بأن حملها كان سبب موتها، في حين أنك كنت قد اكتشفتِ للتو بأنك حامل».

قالت إميلي بعناد: «كان يجدر بك أن تخبرني».

رفضت أن تهدأ، فتابعت: «لِم لا تكون صادقاً بكل بساطة، فتعترف

أنك لا تعتبرني هامة بما فيه الكفاية لكي تشاركني بالأشياء المتعلقة بك؟ مضت سنتان على زواجنا، لكنني بالكاد أعرفك».

- أمضينا نصف ذلك الوقت منفصلين، وذنب من ذلك؟

- ذنبك أنت. موقفك تجاهي هو الذي دفعني إلى الابتعاد، ولم يتغير أي شيء الآن. أليس كذلك لوك؟ ما زلت لا تنظر إلى زواجنا باعتباره شراكة. من وجهة نظرك، المكان الوحيد الذي تجدني فيه مفيدة بالنسبة إليك هو غرفة النوم.

- إذا كان هذا ما تظنينه، فحريّ بك أن تبدأي بكسب بقائك هنا.

زمجر بذلك بوحشية، فيما حذرها اللمعان الحاد في عينيه. أحبط لوك محاولة إميلي بالنهوض عن السرير فوراً.

- لوك، لا! لا تجرؤ على لمسي.

صرخت إميلي بذلك وقد تحول غضبها للتو إلى حماس حاد، فيما قبض لوك على كتفيها بقوة. حاولت أن تتصدى له، لكنه أطبق ذراعيه حولها، وشدها إلى صدره في عناق لا يخلو من القسوة إن لم نقل الوحشية. لم تقوَ إميلي على منعه، حتى وهي تشعر بالسقم بسبب كونها آخر من علمت بأمر سابين. يبدو أنها تسامحه على أي شيء عندما يلامسها ويعانقها، لكن الثمن هو احترامها لذاتها، وهذا يفوق ما يمكنها تحمله. انسابت الدموع من زاويتي عينيها. لابد أن لوك أحس بدموعها على بشرته، فرفع رأسه أخيراً.

ابتعد قليلاً عنها وهو يقول: «سابين تنتمي إلى الماضي. أنت زوجتي الآن، وأقترح أن تبدأي بلعب هذا الدور لصالح جان كلود، إن لم يكن لأي سبب آخر».

* * *

تسللت أشعة الشمس الباهتة من خلال الستائر، فأعلنت بدء فجر جديد، لذا فتحت إميلي عينيها. إن فصل الخريف يقترب بسرعة. كادت لا تصدق أنها أقامت في القصر لفترة تقارب الشهر حتى الآن. أحياناً تحسّ كما لو أنها موجودة هنا منذ الأزل. أقرت إميلي أنه لم يكن شهراً

سهلاً، إذ كانت الأجواء خلال الأيام التي تلت معرفتها بأمر سابين مشحونة بالتوتر. عاملها لوك بازدراء وتعجرف، أما هي فرفضت أن تتراجع وتهدأ. هو المخطئ! ذكّرت نفسها بذلك كل ليلة، وهي تخفي وجهها بين الوسائد وتبكي حتى تنام. هو من أبقى الكثير من الأمور المتعلقة بماضيه سرّاً عنها، ولا أمل لزواجهما بالنجاح، إلى أن تشعر إميلي بأن لوك يثق بها.

بصيص الأمل الوحيد كان مغادرة روبين للقصر على الفور بعد الغضب المتعلق بسابين. هل شعر لوك بالغضب لأن مساعدته الشخصية كشفت لها هوية سابين؟ تساءلت إميلي عن ذلك، أما لوك فلم يشر بأي كلام إلى زوجته الأولى أو إلى روبين. لكن خلال الأسبوع الماضي لاحظت إميلي ليونة في موقفه تجاهها. لعل حفلة عيد الميلاد الصغيرة التي أقاماها لجان كلود ساعدت على ذلك. أمضيا يوماً سعيداً فيما احتفلا بأول سنة له. لم يقوَ لوك على إخفاء افتخاره بابنه، وهو يحمله أمام أصدقائه. أحست إميلي بطعنة حادة من الذنب في داخلها لأنها أبعدتهما عن بعضهما، فيما راقبتهما مسرورين سوياً. لوك يحب جان كلود أكثر مما ظنته ممكناً. إنها صدقاً لم تعرف مطلقاً بأن لوك قد يهتم لأمر طفلهما بهذا العمق. فلم تقوَ إميلي على كبح الوخزة الصغيرة من الغيرة لأن موقع جان كلود في قلب لوك آمن وثابت جداً على خلافها. أطلقت تنهيدة عميقة، فيما حدّقت إلى الأعلى. علقت الأنفاس في صدرها عندما سمعت من الجانب الآخر الصوت المؤثر المألوف: «لِم هذه التنهيدة الحزينة، عزيزتي؟ ألست سعيدة في القصر؟».

- لا!

بعد صمت مطول، لاحظت خلاله حقيقة أن لوك لم يذهب لامتطاء الخيل كعادته كل صباح، وأنه ما زال يستلقي على بعد سنتيمترات فقط منها. أقرت بصدق: «أنا فقط مرتبكة».

- نعم.

التفهم اللطيف البادي في نبرة لوك بدا مغرياً بالنسبة إليها، فعضت

إميلي بقوة على شفتها السفلى. كان يتسلق كل ليلة جهته الخاصة من السرير، فيلقي عليها تحية المساء، بعد ذلك يطفئ النور ويبدو كأنه يستغرق في نوم عميق خلال لحظات فقط. بدا صدقاً أنه لا يتعذب بسبب المشاعر المؤلمة التي تجعل إميلي تتقلّب وتستدير بتململ حتى ساعات الصباح الأولى. حتى في ذلك الحين فإن نومها ينكسر بسبب استرجاعها لذكريات يديه وهما تلامسانها. فكرت إميلي بصرامة، أن ذلك لا يساعد على تحسين الأمور. إن دفاعها الوحيد ضد أحاسيسها المنهارة هي معرفتها أنه يريدها أن تكون زوجته فقط لصالح ابنهما. تساءلت أي سبب آخر يعقل أن يكون، في حين أن وجه سابين ذا الجمال المميز يسخر منها كلما مرت بالقرب من صورتها التي تحتل مركزاً مميزاً فوق الدرج؟

سألته وهي يائسة لكسر الصمت بينهما: «لِم لم تذهب لركوب الخيل هذا الصباح؟».

- قررت أن أنتظرك. فكرت أنك قد ترغبين في الانضمام إلي.

ذكّرها منظر لوك بالقرصان، بفكه الذي نمت عليه شعيرات سوداء خلال الليل، وبشعره المشعث بسبب النوم.

أجابته بتكلف: «ربما في مرة أخرى. بالرغم من ذلك، لطف منك أن تسألني».

على الفور جعلتها ضحكته المكتومة الخافتة مغمورة بالتوق. إنها تحب صوت ضحكاته... إنها تحبه... لكن لطفه المفاجئ مجرد وهم وخدعة. روبين أكّدت لها أن لوك يهدئها بتصرفاته، فيما يخطط هو للفوز بحضانة جان كلود.

قال لوك ممازحاً ليغيظها: «قد يفاجئك مدى اللطف الذي قد أكون عليه، صغيرتي. في ما مضى كنت تحبين ركوب الخيل. في الواقع كنت تمضين غالبية وقتك على صهوة قاسم».

- حصل ذلك منذ وقت طويل جداً.

همست إميلي، فيما كورت جسمها على شكل طابة تحت أغطية

السرير. من الغباء أن تبكي على ذكرى حصان! قالت ذلك لنفسها، فيما عاد ذهنها فعاش أحداث ذاك اليوم الذي بيع فيه قاسم، بالإضافة إلى الأحصنة الأخرى الموجودة في الحظيرة في هيستون غرانج. يومها فسّر لها والدها أن هذا تدبير لتقليص المصاريف الإضافية، لكن إميلي لم تقوَ على التأقلم مع بؤسها عندما صعقها بهذا الخبر.

يومها فرّت إميلي إلى الإسطبلات وهي مشتتة الفكر تماماً، وهناك وجدها لوك لاحقاً، فجذبها بحزم بين ذراعيه. ذراعاه القويتان قدمتا لها الراحة، بينما تعلقت إميلي بكتفيه العريضتين. خمدت دموعها تدريجياً وهي تفسر له بين الشهقة والأخرى بأن العقد أصبح نهائياً، وأن قاسم سوف يتم شحنه إلى خارج البلاد. مسح لوك عن وجهها دمعة شاردة بإبهامه، قبل أن يخفض رأسه ويضمها إلى صدره من جديد.

لم تقدر إميلي على تذكر اللحظة التي تغير فيها اتجاه احتضانه لها، إذ كشف عن شغف مشتعل كان يغلي على نار خافتة تحت السطح. لاحظ لوك خجلها، فإميلي حظيت بالقليل من الأصدقاء الحميمين من قبل، أما خبرتها فتكاد تكون معدومة. مع ذلك تجاوبت مع عناقه بتلقائية، فجأة طار كل أثر للقدرة على كبح الذات عندما شدها لوك لتلتصق به.

- إنك مميزة جداً، يا جميلتي.

داعب صوت لوك بشرتها تماماً كما فعلت يداه. سمعته إميلي يستنشق أنفاسه بحدّة. من يعلم ما الذي كان ليحدث لو لم تتطفل على عالمهما تلك الأصوات المسموعة من الباحة الخارجية؟

فكرت إميلي بتشاؤم أنها بدت كالعجينة بين يديه. ضاعت منذ اللحظة الأولى التي عانقها فيها لوك، إذ بدت كعبدة مطيعة لرغباته. إلا أنها ارتكبت الخطأ المميت بالخلط ما بين الانجذاب الحسي والحب، فالحب لم يدخل عالم لوك ولا قلبه قط، على الرغم من شعوره بالانجذاب إليها.

- تعالي معي هذا الصباح.

اخترق صوت لوك أفكار إميلي. بدت تلك مقاطعة مرحب بها لتخرجها من الذكريات التي ما تزال تطاردها.

- سوف نأخذ جان كلود ليرى الأحصنة، وهنالك فرس صغيرة قد تكون مناسبة لك.

* * *

في وقت لاحق من ذلك الصباح، وقفا في الباحة الخارجية يداعبان الفرس الكستنائية الجميلة التي كان سائس الخيول قد أخرجها من الإصطبلات. سألها لوك: «ما رأيك بميمي؟ أقرّ أنها ما زالت صغيرة، لكنها لطيفة وآمنة لكي تمتطيها».

جادلته إميلي قائلة: «لِم لا تطلب لي كرسياً ذا عجلات وتنتهي من الأمر؟ أنا لست ضعيفة، ولا أريد أن أكون بأمان».

لم تشأ أن تبدو غير ممتنة، لكنها أيضاً لا تريد أن تكدح في السير كالحلزون. تابعت تقول: «امتطاء الخيل عملية تتعلق بالتشويق والحماس. هذا ما كنت أشعر به عندما كنت أنظر إلى قاسم في سباق عبر الريف. كان ذلك رائعاً».

نظر إليها لوك وقد ارتسمت تعابير تدل على الفضول على وجهه. أشار قائلاً بحزم: «أعلم أنك فارسة ممتازة عزيزتي، لكن لا يمكنني أن أفهم أبداً لِم سمح لك والدك بامتطاء حيوان قوي كهذا».

كشفت إميلي للوك بابتهاج قائلة: «لطالما كان أبي منغمساً جداً في إدارة الملكية، فلم يهتم بما أفعله. أنا كنت خيبة أمل دائمة بالنسبة إلى والديّ. كان يجدر بي أن أكون صبياً، لكنني ولدت الابنة الرابعة، ولم أكن حتى جميلة أو موهوبة كشقيقاتي الثلاث الأخريات. لم يأبه أي شخص فعلاً بما أفعله، طالما بقيت بعيدة عن دربهم، أما أنا فكنت مسرورة جداً بقضاء وقتي مع قاسم».

فكر لوك بكآبة وهو يحدق نحوها، يا إلهي! لا عجب أن إميلي تعاني من افتقار ساحق إلى الثقة بالنفس. أمضت حياتها وهي تشعر أنها ليست بذات أهمية، وكانت بحاجة إلى شخص يضعها في مركز اهتمامه

وعالمه، لا إلى شخص يحملها إلى وسط المدينة الضخمة، فيهجرها لأسابيع متواصلة. فجأة اتضح للوك سبب غيرتها من روبين. إميلي أحست بالتهديد من تميّز وأناقة المرأة الأخرى، وهي على الأرجح قارنت نفسها بها، تماماً مثلما فعلت سابقاً مع شقيقاتها. أما هو فلم يأخذ وقته كي يطمئنها بأن براءتها وجمالها الرقيق هما السبب الذي جعله يقع في حبها. أخذ لوك كل شيء قدمته له إميلي بحرية تامة، ولم يمنحها أي شيء بالمقابل، ولعل الأمر الأكثر تدميراً كان عدم منحها ثقته. هو لم يجد الجرأة قط كي يشاركها بمشاعره. أمن العجب إذاً أن تعتقد أنه لا يهتم لها؟

غمغم لوك، فيما أصبح حلقه جافاً بسبب مزيج من الشعور بالذنب والارتباك: «حسناً! يمكنني أن أرى بأن ميمي لا تعجبك. هنالك حصان آخر قد يهمّك».

أخبرها بذلك بينما بدأت إميلي تدفع عربة جان كلود خارج الباحة، ثم تابع: «سائس الخيل سوف يحضره إلى هنا من الحظيرة».

تقلصت معدة إميلي، وتصلبت هي بدورها عندما لاحظت من بعيد ذاك الحصان يحرك رأسه بسرعة وفخر أثناء سيره.

- لوك! لا يعقل أن يكون... قاسم.

همست إميلي بصوت خافت بينما اقترب الحصان أكثر فأكثر، وحوافره تطرق أرض الباحة الخارجية وهو يجذب اللجام، بحيث استلزم الأمر قوة من سائس الخيل حتى يسيطر عليه.

- آه... يا إلهي!

تعثرت إميلي وهي تخطو إلى الأمام، فيما تركزت عيناها على قاسم. سألت إميلي متعجبة: «قاسم! أهذا حقاً أنت؟».

في تلك اللحظة توقف الحصان عن الجذب، وأخفض رأسه بحيث أصبحت عيناه البنيتان على مستوى عينيها. لوهلة ظنت إميلي أن قلبها سينفجر. كانت قد نسيت كم يعني قاسم بالنسبة إليها، أو بالأحرى هي لم تنسَ، لكنها ببساطة دفنت ذكراه في أعماق لاوعيها، لأن فقدانه

آلمها كثيراً، أما الآن فدفعت بوجهها على عنقه وهي تحاول من دون جدوى أن تكبح دموعها، فيما مرّغ قاسم أنفه بها.

- يا حصاني الحبيب!

تصدّع صوت إميلي بسبب الأحاسيس التي لم تقوَ على إخفائها، أما لوك فاستدار مبتعداً عن المشهد، شاعراً كما لو أنه يتطفل عليهما. أراد أن تكون إميلي سعيدة. إنها تستحق أكثر مما منحها يوماً، لكنه خيّب ظنها لفترة طويلة جداً. ردّة فعلها عندما اكتشفت أمر سابين جعلته يفهم كم كان غير مكترث بمشاعرها.

- آه... لوك! أكاد لا أصدق أنه حقيقي.

همست إميلي بذلك، فطرف لوك بعينيه بحدة قبل أن يستدير ليواجهها. لم يبكِ على هذا النحو مذ كان صبياً... منذ أن نظر إلى جسد والدته الميتة. أدرك لوك أنه لم يبذل من قبل مجهوداً كافياً لإسعاد إميلي. علّق بخجل: «لا بد أنه يتذكرك. لم أره بمثل هذا الهدوء منذ أن وصل إلى هنا. هل أستنتج أن دموعك تنم عن السعادة؟».

- نعم، هي كذلك. كيف وجدته؟ ظننته في بلد آخر.

قالت إميلي ذلك وهي تفرك عينيها بأصابعها، أما ابتسامتها فسببت ألماً حاداً في صدر لوك.

- كان كذلك، ومالكه الجديد كره الانفصال عنه، لكنني لحسن الحظ تمكنت من إقناعه بالبيع.

لم يضف لوك بأن الأمر تطلب منه كل مهاراته في الإقناع، بالإضافة إلى سعر يفوق بثلاثة أضعاف قيمة هذا الحصان الأصيل. في الواقع، السرور الذي رآه على وجه إميلي استحق كل قرش دفعه.

- لكن... لا يعقل أنك اشتريته لأجلي؟

- حسناً! لا أحد غيرك يمكنه امتطاؤه، فهو عنيد لعين. لِم عساي لا أشتريه لأجلك، صغيرتي؟

سألها لوك ذلك بلطف، ثم أضاف: «أنا أعلم كم تحبينه».

- آه، لوك!

شعرت إميلي أن قلبها على وشك أن ينفجر، فأطلقت صرخة، وأسرعت عبر الباحة لترتمي على صدر لوك قائلة: «أنا أحبك. أعني...».

قطعت إميلي كلامها فجأة، فيما طاف اللون الأحمر فوق وجنتيها، ثم تابعت تقول: «...ما عنيته هو أنني أحببت ما فعلته... إنها مبادرة لطيفة».

تراجعت إميلي مبتعدة عنه، فيما بدا إحراجها واضحاً للعيان، فانقبض قلب لوك. غمغم بهدوء: «لطالما قلت لي إنك تحبينني».

رفضت إميلي أن تلاقي نظراته، فيما قالت: «لا تذكرني بذلك. لابد أنك وجدت تلهفي... متعباً جداً».

ردّ لوك بصراحة: «لا! وجدته أمراً محبباً جداً. أحببت سماعك تقولين ذلك».

- لكنك غير قادر على قول شيء مماثل.

تراجعت إميلي إلى الوراء مبتعدة عنه وهي ترمش عينيها بقوة، إذ بدت يائسة كي تمحو دموعها. جعلت من نفسها غبية بما فيه الكفاية. طمأنته عندما مدّ يده نحوها: «لا بأس! أنا أعرف السبب، أتفهم ذلك».

إنه لا يستطيع أن يقول لها إنه يحبها في حين أن قلبه ما زال مع سابين.

تابعت: «إن شراءك قاسم هو أروع شيء فعلته من أجلي على الإطلاق، ولست أدري كيف يمكنني أن أشكرك».

اقترح لوك برقة: «حاولي!».

دفء نظراته أذهلها، قبل أن يقترب منها ويعانقها. بدا عناقه عذباً بحيث اضطرت إميلي إلى حبس الدموع التي كادت تنهمر من عينيها. أغمضت عينيها وهي تشعر أنه يخترق دفاعاتها بسهولة كبرى. أقرت بصدق أنها تفتقد إليه. خلال الشهر المنصرم تاقت لأن يكسر الحواجز التي رفعتها في وجهه، أما الآن وهي بين ذراعيه فإنها لا ترغب أبداً في

الابتعاد. شدها لوك إلى صدره الصلب كالجدار، وبدا مستعداً لسحق أية إشارات تدل على المقاومة. لكن ما كان يجدر به أن يقلق.

- عدة امتطاء الخيل الخاصة بك موجودة في غرفة المستلزمات.

غمغم لوك بذلك أخيراً عندما دفع رأسه ليحدق نزولاً نحوها، وقد انقبض جسده وهو يتمعن في ملامح وجهها. لكنه تجاهل مشاعره البدائية الملحة التي سببت الألم في أحشائه. لقد ابتزها لتدخل سريره مرة، وعلى الرغم من أن مقاومتها بدت متدنية، فهو يريدها أن تأتي إليه في المرة المقبلة برغبة وإرادة أكبر. يريدها أن تأتي إليه من دون إكراه، وليس لأنها تشعر بأنها تدين له مقابل حصانها الملعون.

- هل أنت جاهزة لتجربي قاسم؟

- جان كلود!

نظرت إميلي حولها، فيما هاجمها الشعور بالذنب إذ تذكرت ابنها متأخرة. لحسن الحظ، كان الصبي يجلس في عربته وقد بدا مسحوراً بقاسم. في التوقيت المناسب تماماً عبرت ليز الباحة.

وضعت إميلي السرج فوق ظهر قاسم، وانضمت إلى لوك الذي امتطى حصانه القوي. ألحّ لوك على أن يأخذا الأمر بروية. حذّرها بأن قاسم ما يزال غير مستقر في محيطه الجديد، أما إميلي ففوجئت في سرّها بقوة حصانها هذا. واست نفسها بأنها لم تكن قد امتطت الخيل لما يقارب السنتين، أما قاسم فلطالما تمتع بإرادة خاصة به. ذلك هو أحد الأسباب التي جعلتها تحبه، مع ذلك شعرت بالألم في ذراعيها حين عادا إلى الإصطبلات.

- أريدك أن تعديني بأنك لن تخرجي معه بمفردك.

طلب منها لوك ذلك، وهو يساعدها في الترجل عن الحصان. كانت إميلي تشعر بالحر، وقد انقطعت أنفاسها بسبب ركوب الخيل، أما لوك فلم يبدُ أنه شعر بالارهاق.

- بصراحة، قاسم كبير جداً وقوي. ولولا يقيني أنك تحبينه كثيراً، لاشتريت لك حصاناً آخر.

أمضى لوك الساعة الأخيرة وهو يشعر بالقلق، خشية أن يرمي الحصان بإميلي أرضاً. راح يتخيلها مستلقية على الأرض، مضرجة بالدماء، لذا شعر بشيء من الندم على شرائه هذا الحصان لها. كيف تراه سيتمكن من العيش مع نفسه إذا ما تعرضت للأذى؟

- لن ألبث أن أعتاد عليه من جديد.

بدأت إميلي بهذا الكلام، وعلى الفور رمقها لوك بنظرة قاسية لا تحتمل الجدال.

- أنا أعني ما أقوله، إميلي! لن تمتطيه إلا حين يستطيع سائس الخيل أو أنا أن نرافقك. إذا رفضتِ أن تطيعيني، لن يبقَ أمامي خيار آخر سوى أن أبيعه. لن أقف مكتوف اليدين، فأسمح لك بأن تعرضي حياتك للخطر.

- ما الذي يجدر بي أن أفعله كي أبرهن لك أنني لست طفلة في السادسة من العمر؟

ردّت إميلي بكلمات لاذعة وهي تشعر بالسخط، فيما وضعت يديها على وركيها، وهي تحملق به.

انتفضت شفتا لوك، ثم غمغم بعذوبة: «فعلت ذلك للتو بشكل يثير الإعجاب عزيزتي. لكنني لن أتذمر إن أردتِ تنبيه ذاكرتي!».

استمر انسجامهما طوال رحلة عودتهما سيراً على الأقدام إلى القصر. تمشيا ممسكين بيدي بعضهما طوال الطريق. فجأة بدا الريف أكثر نضارة وأكثر إشراقاً في اخضراره. بدا لإميلي كما لو أن أحاسيسها تتسارع، وبدا صوت زقزقة العصافير عذباً جداً لأذنيها، أما قلبها فامتلأ بالسعادة. لوك وجد قاسم لأجلها. ذلك ليس تصرفاً يفعله رجل يمقتها. لعله بدأ يغفر لها أنها أبقت جان كلود بعيداً عنه، وربما بدأ يثق بها. ربما لن يحبها لوك كما أحب زوجته الأولى، لكن فجأة بدا المستقبل زهرياً أكثر مما بدا عليه منذ فترة طويلة.

إن للحياة أسلوباً مثيراً للدهشة في رفضها السير وفقاً للخطة المتوقعة. قررت إميلي ذلك بعد مرور عدة لحظات، عندما تسلقا درج

القصر فلاقاهما فيليب. غمغم هذا الأخير قائلاً: «السيد لاروش موجود هنا لمقابلتك، سيدتي».

أضاف عندما حدّقت إميلي به بارتباك واضح: «إنه مدير المصرف. طلبت منه أن ينتظرك في غرفة الاستقبال».

- أمر مثير للفضول! أتظنين أنها زيارة اجتماعية أم زيارة عمل؟

غمغم لوك في أذن إميلي بذلك، فيما بدت تعابير وجهه فجأة غامضة لا يدرك كنهها، مع ذلك اختفت ابتسامته الرائعة.

- أتخيل أنها زيارة عمل.

ردّت إميلي وهي تدرك بارتعاب أن خديها يلتهبان، ويعلنان عن شعورها بالذنب. كيف أمكنها أن تنسى الموعد الذي طلبت من فيليب أن يدبره لها مع مدير المصرف، لكي يناقشا مشاريعها في تأسيس عمل خاص بها؟ لم يكن أمامها سبيل للحصول على سيارة لتذهب إلى المصرف، لذا اضطرت إلى الطلب من السيد لاروش أن يزور القصر، وصلّت كي يكون لوك منشغلاً في غرفة الحضانة مع جان كلود، لكن فرط حماستها لدى لقائها بقاسم، جعلتها تنسى تماماً موعدها مع الرجل. ألقت إميلي نظرة سريعة إلى وجه لوك الساخط، ثم خطت إلى غرفة الاستقبال كي تقابل الرجل الفرنسي الأنيق.

- آمل أنك لم تنتظر وقتاً طويلاً.

غمغمت إميلي بذلك وهي تدرك وجود لوك بالقرب من الموقد، فيما دعت السيد لاروش إلى الجلوس. بدا من الواضح أن لوك ليست لديه أية نية إطلاقاً بأن يمنحها الخصوصية في لقائها مع الرجل.

- لا، على الإطلاق! أخشى أنني أبكرت قليلاً بالقدوم.

ردّ مدير المصرف، ثم تابع كلامه وهو يحاول أن يتجاهل التوتر الذي يغلي على مهل في الغرفة، ثم أردف: «فهمت أنك ترغبين بمناقشة مسألة الحصول على قرض مالي لتأسيس عمل خاص، سيدة فايلون. في الواقع، تأثرت بمخطط العمل الذي أرسلته لي».

- شكراً لك.

غمغمت إميلي بذلك، فيما استقرت عيناها على لوك الذي تمشى نحوهما لينضم إليهما. انحنى وأمسك بالملف الذي وضعت فيه أفكارها المتعلقة بصناعة ملابس الأطفال.

- أنا حتماً أفكر في تأسيس عمل خاص بي...

- ... لكن ليس في الوقت الراهن.

أنهى لوك الكلام عنها، متجاهلاً شهقة إميلي. ما لبث أن مدّ يده إلى مدير المصرف بحركة تدل بوضوح على أن الاجتماع انتهى.

- ما زال أمام زوجتي العديد من الأمور لتأخذها بعين الاعتبار قبل أن تسير قدماً بهذا المشروع.

حالما صارت إميلي ولوك بمفردهما، استدارت نحوه، وقالت: «لا يمكنني أن أصدق أنك صرفت الرجل المسكين على هذا النحو. ذلك تصرف فظ جداً، خصوصاً أنه قطع هذه المسافة الطويلة إلى هنا».

استفسر لوك بإيجاز: «وذنب من هذا؟».

اشتعل مزاج إميلي، وأجابت: «حتماً ليس ذنبي أنا. لم أستطع التوجه إلى البلدة، لأنك لم تؤمن لي سيارة».

قال لوك بعبوس: «إنه قرار له ما يبرره، بما أنك تتسللين من وراء ظهري عند أول فرصة تسنح لك. ناقشنا هذا الموضوع، وعرفتِ أنني لا أريدك أن تعملي».

صرخت إميلي بيأس قائلة: «بالضبط، وهذا هو السبب في عدم رغبتي بأن تكتشف أنت الأمر. أنا أحارب للحصول على استقلاليتي هنا لوك، ولست أقصد الناحية المالية، بل أنا بحاجة لأن أكون شخصاً مستقلاً بذاتي. أنا أرفض أن أعيش حياتي كتقليد سيء لزوجتك التي خسرتها».

صرخت إميلي بذلك في وجه لوك، ثم شهقت وغطّت فمها بيديها. لكن الأوان قد فات.

- لماذا تصرّين على جرجرة النساء الأخريات وإقحامهن في كل شيء؟ زوجتي الأولى لا علاقة لها أبداً بحياتنا الآن.

زمجر لوك بذلك، فهزّت إميلي رأسها، ثم أقرّت: «بل لها كل العلاقة بالأمر. إنها تطاردني باستمرار. سابين كانت رائعة الجمال. لابد أنها كانت الزوجة المثالية، وأنا حقاً لا يمكنني أن أتنافس معها. لا يمكنني أن أفهم كيف يمكنك أن تحمل نفسك على النوم معي حتى. لابد أنك وجدتني بديلاً بائساً».

- أنت لا تفهمين شيئاً!

قذفها لوك بكلامه بوحشية، بينما اندفع مسرعاً غاضباً نحو الباب.

٨ ـ أحلام يقظة

كان الوقت قد تخطى منتصف الليل عندما دخل لوك إلى غرفة النوم، واختفى على الفور داخل الحمام المتصل بالغرفة. ربضت إميلي تحت الأغطية، وهي تستمع إلى الأصوات التي تدل على أنه يستحم. خرج لوك وقد لفّ منشفة حول خصره، أما شعره فبدا مبللاً تماماً. تموجت عضلات معدته الصلبة وهو يتحرك ليجلس على حافة السرير. اعتصرت إميلي عيناها فأغمضتهما، وهي تحاول من دون جدوى أن تجعل تنفّسها ثابتاً لكي يفترض لوك أنها نائمة.

- أنت ممثلة غير بارعة، صغيرتي.

أحست إميلي به ينزلق تحت الأغطية، مع أنه التزم بناحيته من السرير. تابع يقول: «أعلم أنك مستيقظة، كما أعرف أنك لا تحظين بسوى القليل من النوم كل ليلة».

- لست أدري كيف تعرف ذلك، في حين أنك تغفو خلال دقائق بعد أن يلامس رأسك الوسادة.

شعرت بالامتنان لأنه أطفأ النور، بحيث صارت وجنتاها المشتعلتان مخفيتين عن نظراته.

علق لوك بنعومة: «أنا أيضاً أبقى مستيقظاً، فالاحباط مؤلم كالجحيم. أليس كذلك، عزيزتي؟

- كيف لي أن أعلم؟

انقلبت على الجانب الآخر فسمعت لوك يتنهد من الجانب الآخر.

- أنا أدين لك باعتذار. ذلك الشجار الأخير الذي حصل في قاعة الاستقبال منذ قليل لم يكن ضرورياً.

قالت إميلي ببؤس: «لكن ما قلته صحيح، فروبين أخبرتني كم تحب زوجتك الأولى، وكم شعرت بالأسى حين توفيت».

- أحقاً؟

حدّق لوك إلى الأعلى، ثم أطلق أنّة هادئة. استطاع أن يسمع الألم في صوت إميلي، بالإضافة إلى التشكيك بذاتها. أتراها ستشعر بالتحسن لو كشف لها أنه فقد حبه لسابين قبل فترة طويلة من موتها المأساوي؟ هو في الواقع يخشى أن يخبر إميلي عن زواجه الأول، فتلك المرحلة ليست من أكثر الفصول المنيرة من حياته. أقرّ لوك بذلك بعبوس، فهو لم يفشل فقط في أن يكون زوجاً جيداً، لكنه فشل أيضاً في إنقاذ سابين. إميلي أعجبت به في بداية علاقتهما كما يعجب المرء بأحد الأبطال المثاليين، أما هو فأعجب بالأسلوب الذي كانت تنظر فيه إليه بسمو. جعله ذلك الأمر يحس بشعور جيد حيال نفسه. أما الآن فهي تنظر إليه كما لو أنها لن تثق أبداً بأية كلمة يقولها. قال بتثاقل: «أنا لم أخبرك عن سابين لأنها تنتمي إلى الماضي، وليس لها أية علاقة بمستقبلنا سوياً. من الواضح أنني كنت مخطئاً، وأتمنى لو أنك لم تعرفي بشأنها بتلك الطريقة».

- لطالما تعمدت روبين أن تسبب المشاكل بيننا.

قالت إميلي ذلك بحذر، لكن لدهشتها، لوك لم يقفز ليدافع عن مساعدته الشخصية: «يبدو الأمر كذلك».

أقر لوك بذلك بهدوء، فحبست إميلي أنفاسها.

- اطلب منها إذاً أن تغادر. لابد أن هنالك العديد من الموظفين المؤهلين الذين يمكنك أن تعينهم في منصب المساعد الشخصي.

- الأمر ليس بهذه البساطة.

ردّ لوك بتثاقل، فجلست إميلي مستقيمة في السرير، ونظرت إليه من فوق الوسادة الكبيرة.

- لماذا؟ ألأنها كانت في ما مضى زوجة شقيقك؟ أنت أخبرتني بأن إيف مات منذ أربع سنوات، ألم يحن الوقت لها للمضي قدماً بحياتها؟

امتد الصمت بينهما، فتنهدت إميلي، وذكّرته قائلة: «أنت قلت إنك تريد أن تمنح زواجنا فرصة أخرى، لكنك من جهة أخرى تحكم عليه بالفشل ما دامت روبين موجودة بيننا، خصوصاً أنك تصدق كلامها هي لا كلامي أنا كلما تجادلنا».

لا يمكنه أن يطلب من إميلي أن تتفهم حالة روبين العقلية الحساسة، فهذه الأخيرة أحبت إيف حباً جماً، وموته جعلها ميالة إلى الانتحار، فأصبح لوك سندها العاطفي. ولأول مرة أدرك أن روبين حتماً كرهت خسارتها لاهتمامه بها عندما تزوج إميلي.

- كيف تتوقع مني أن أبقى هنا مع جان كلود في حين أن هناك العديد من الأمور التي لا أفهمها؟

أكملت تطالبه بغضب: «أمِن المستغرب أنني أرغب في تأسيس عملي الخاص لكي أنال بعض الاستقلالية، عوضاً عن أن تتم جرجرتي إلى العالم السفلي الذي يبدو أنك تقيم فيه؟».

جلس لوك مستقيماً، فأضاء النور بحيث رمشت إميلي عينيها، ثم زمجر قائلاً: «قصر مونتيراد ليس عالماً سفلياً معتماً. ظننت أن المكان هنا يعجبك».

- إنه يعجبني.

استسلمت إميلي، وانقلبت على الوسائد. كانت تتكلم، وهو كان مصغياً، لكن بشكل ما اختلطت الرسائل.

- أدرك أنك تشعرين بالوحدة هنا، لكن المدينة لا تبعد كثيراً.

- إنها بعيدة حين لا تسمح لي باستخدام السيارة، ولا تظنني لم أحزر ما هي أسبابك. أنت تخشى بأن أختفي مع جان كلود.

قال لوك بخشونة: «عليك أن تكتسبي الثقة، عزيزتي. أما أن تحاولي مناقشة مخططاتك في العمل مع مدير المصرف خفية عني، فذاك لا يعتبر أسلوباً مؤثراً يساعدك على نيل ثقتي».

- فسّرت لك أنني أردت أن أبحث كل الاحتمالات قبل أن أناقشها معك، لكنني أفترض أنك ما كنت لتصغي إلي حتى لو فعلت.

- لست أدري.

أجفلت عندما أطلق تنهيدة إحباط مفاجئة. اتسعت عيناها وهي تراقبه يمرر يده من خلال شعره. لم تره قط منزعجاً وقلقاً إلى هذا الحد من قبل. بالرغم من كل شيء تعاطف قلبها معه. قالت: «أنا آسفة! أعلم أنك لا تفهم مقصدي، وأنك ربما تظنني غير ممتنة. أنت لا ترى أي سبب يدفعني إلى العمل، في حين أنك وفرت لي هذا المكان الرائع لأقيم فيه، لكنه شيء أود أن أفعله لوك... لأجلي أنا. أنا لم أبرع في أي شيء عندما كنت أصغر سناً».

أقرت له إميلي بذلك، ثم تابعت: «شقيقاتي كن ينعمن بالذكاء والدهاء فضلاً عن الجمال، ما جعلني دوماً أشعر أنني فاشلة. بدا تصميم وصنع الملابس لجان كلود بمثابة المنقذ بالنسبة إلي. أخيراً وجدت شيئاً يمكنني أن أبرع فيه جيداً، ثم تطور الأمر إلى مهنة صغيرة ناجحة في إسبانيا. أعلم أنني بمساعدة نادين تروفيير يمكنني أن أبدأ من جديد هنا».

فسّرت إميلي ذلك للوك وهي تستند إلى الوسادة من فرط حماستها لتشاركه في مخططاتها. تابعت تقول: «هنالك مجال متوفر في السوق لبيع ملابس الأطفال التي تمت خياطتها يدوياً».

- أيعني ذلك لك الكثير؟

حملت نبرة لوك رقة جديدة، أما عيناه فالتمعتا بإحساس مثير للفضول لم تقوَ إميلي على تحديده. عضت على شفتها، وهي تقول: «نعم. تماماً مثلما عنت لي رؤية قاسم مجدداً. أنت لا تدري كم هو رائع أن أراه مجدداً. كنت... عاجزة عن الكلام».

غمغم لوك بنبرة جافة: «لاحظت ذلك بالفعل».

- بعد ذلك تجادلنا، فلم أشكرك بشكل لائق.

بدا من الصعب على إميلي أن تفكر بشكل سليم، فيما لوك ينظر إليها على هذا النحو. هي لم تشك للحظة بأن لوك يدرك شرارات الكهرباء التي تتفاعل عملياً عبر جهتي السرير. إن ملاءمتهما لبعضهما

لم تكن يوماً مدعاة للشك، لكنها في ما مضى كانت تكتفي بجزء صغير من اهتمام لوك، غير أنها الآن اكتفت من ذلك. لقد نضجت خلال الفترة التي أمضياها منفصلين، وعلى الرغم من أن حبها له لم يتضاءل مطلقاً، لكن احترامها لذاتها ازداد بضع درجات، وهي ترفض أن تدعه يدمر ذلك.

لعل لوك أدرك أن المعركة تدور في داخلها، إذ بدا كأنه يريد تسهيل الأمر عليها. أمسك وجهها بين يديه، وهمس: «أهو حقاً أمر خاطئ أن نرغب باستعادة ما كان لدينا ذات يوم؟».

استطاعت أن تشعر بدفء أنفاسه على بشرتها. : «هل الثقة بيننا صعبة إلى هذه الدرجة؟».

بدا عرضه هذا مغرياً جداً أكثر مما يمكن تخيله. عانقها لوك بنهم الرجل المتلهف المكبوت، فتلقى منها تجاوباً تاماً. بدا عناقه نعمة، ولم تقوَ إميلي على التحمل حين توقف. من السهل جداً أن تجذب لوك نحوها، لتلف ذراعيها حوله وتبقيه أسيراً، لكن شيئاً ما جعلها تتوقف.

لو لم تكن والدة طفله، أتراها كانت ستتواجد هنا الآن؟ هل كان سيحاول جاهداً أن يجدها لو أن جان كلود ليس موجوداً؟ أرادت إميلي أن يريدها لأجل ذاتها، وليس لأن الاستمرار بهذا الزواج هو لصالح ابنهما. ثم... ماذا بشأن سابين؟ وروبين؟ فكرت إميلي يائسة أنها تقبّلت حقيقة عدم خيانته لها، لكنها ما زالت لا تثق بارتباطه العاطفي بمساعدته الشخصية.

- سوف أثق بك يوم تعين مساعدة شخصية أخرى.

قالت إميلي ذلك بثبات، فتصلب لوك، وبدا كما لو أن السخط والرغبة يخوضان معركتهما الخاصة لديه. أجاب بكلمات مفحمة ولاذعة: «لا يمكنك أن تتوقعي مني أن أطرد امرأة أحبها وأحترمها في آن معاً بسبب نزوة لديكِ، فهي كانت زوجة أخي!».

- وبصفتي زوجتك، أتوقع منك أن تضع رغباتي فوق رغبات أي فرد من موظفيك.

- ليس من المنصف أن نجعل من روبين كبش محرقة لمشاكل زواجنا.

حذرته إميلي قائلة: «من دون روبين ما كنا سنواجه أية مشاكل. عليك أن تختار بيني وبينها لوك. هذا الخيار سيحدد إن كان زواجنا سيحيا أم سيموت».

فتلقت من لوك حملقة تدل على الغضب العارم المرير، ما جعلها تنسحب إلى أبعد ناحية من السرير، وتتقوقع تحت الأغطية، بينما أطلق لوك شتيمة قاسية.

انقضى أسبوع آخر، ولم يقم لوك بأي تلميح آخر إلى طلب إميلي بأن يصرف روبين، لكن التوتر كان يغلي على نار هادئة بينهما. الضحك والصداقة اللذان نشآ بينهما اختفيا، أما شبح سابين فاستمر في مطاردة إميلي، ولولا وجود جان كلود لأصبحت الأجواء في القصر لا تحتمل. بدا كأن الطقس يتعاطف أيضاً مع مزاجها، إذ تحول إلى أيام رمادية طويلة، تتساقط فيها الأمطار باستمرار. بدا القصر مظلماً وكئيباً مع اقتراب فصل الشتاء، كما أن وجود لوك المتكرر في غرفة الطفل لم يساعدها. على الرغم من أنها لاحظت أن الوقت الوحيد الذي يضحك فيه هو حين يلعب مع جان كلود، وذلك دعّم اعتقاد إميلي بأنه يحتمل وجودها في القصر فقط لصالح ابنه.

فكرت إميلي بوهن، لعله يشعر بالاحباط، إذ تذكرت ملاحظته الساخرة المتعلقة بالاحباط الذي يشبه الجحيم، فلوك يتمتع باندفاع هائل لمشاعره البدائية.

تكاد إميلي لا تصدق أنه أمضى سنة انفصالهما متبتلاً، بالرغم من أن ذلك يفسر مزاجه السيء. أقرت بذلك بعبوس، قبل أن تفكر أن لديها مشاكل أخرى الآن خاصة بها.

طمأنت نفسها وهي تلاحظ تاريخ اليوم على صحيفة لوك، إذ إن دورتها الشهرية لم تتأخر سوى بضعة أيام فقط. خمسة أيام على الأكثر. ما من داع لأن تشعر بالهلع، لكنها مع ذلك طلبت من ليز أن تحضر لها

جهازاً لفحص الحمل من القرية.

- ما الأمر؟

أخفض لوك صحيفته جزئياً، ملقياً عليها نظرة متسائلة، وهو يلاحظ وجهها الشاحب. استفسر وهو يقلب الصفحة الأمامية كي يتفحص العناوين، قائلاً: «هل أزعجك شيء ما في الأخبار؟ لابد أن لغتك الفرنسية تتحسن عزيزتي، إذا كان بمقدورك تتبع مقال يتعلق بالاختلاس الحكومي».

- ليس ذلك هو السبب. إنه... لاشيء. أشعر أنني لست على ما يرام هذا الصباح. على الأرجح أنني التقطت جرثومة ما.

غمغمت إميلي بذلك محاولة أن تهدئ شعورها بالغثيان عندما وضعت سيمون كوباً من القهوة القوية الرائحة أمامها.

- هممم!

بدا لوك بكل بساطة غير مقتنع بكلامها، فتحركت إميلي بغير ارتياح تحت نظراته الحارقة. أحياناً تحس كما لو أنه قادر على قراءة أفكارها، أما الآن بالذات فهذا ليس بالأمر الجيد. إذا كانت حاملاً فهي لا ترغب بمشاركته الخبر حتى تصبح قادرة على تقبله هي نفسها. كيف تراها تصرفت بمثل هذا الغباء؟ أثبت إميلي نفسها. لم يكن الذنب ذنبها على الأقل عندما صارت حاملاً بجان كلود، أما هذه المرة فهو يعود حتماً إلى عدم الانتباه. أنارت ابتسامة صغيرة وجهها وهي تراقب جان كلود يسكب اللبن على صينيته فوق كرسيه المرتفع، ثم يلعب به. إنه أفضل ما حصل لها في حياتها، ووجود شقيق أو شقيقة أخرى له سوف يضاعف سعادتها، لكنها تشك أن بإمكانها قول الأمر نفسه عن لوك. لطالما أصرّ لوك على أنه لا يريد الأطفال، وعلى الرغم من حبه الكبير لابنه، ارتعدت إميلي عندما فكرت بما ستكون عليه ردة فعله لو أخبرته أنه سيصبح والداً للمرة الثانية.

- هنالك شيء أريد أن أريكِ إياه.

قاطع صوت لوك أحلام يقظة إميلي. كان لوك مسافراً خلال اليومين

الماضيين، وأخبرها فيليب أنه في اجتماع عمل ملح. لكن بالرغم من التوتر الذي يغلي ببطء بينهما حين يكونان في الغرفة نفسها، فإن إميلي افتقدت له. من المؤسف أن الرحلة لم تحسن مزاجه. بالطبع هي لم تدرك أن لوك عاد إلى لندن، وأجرى محادثة مع مدبرة منزله، هي السبب في نظرته المتفكرة.

- يمكنني أن أنتظر حتى يوم الغد، إذا كنت تشعرين أنك لست على ما يرام.

أضاف لوك ذلك، فهزّت إميلي رأسها نفياً، إذ كانت ترغب بفعل أي شيء حتى تطيل فترة مكوثه، قبل أن ينصرف منسحباً إلى مكتبه حتى آخر النهار.

ردّت بمرح، وهي تدفع كوب القهوة من أمامها: «أنا بخير».

سلك لوك الدرج المؤدي إلى البرج الغربي من القصر، فصعد كل درجتين دفعة واحدة، إذ كان بحاجة إلى إيجاد طريقة يطلق فيها عدائيته المكبوتة. ما الذي تراه سيقوله لإميلي بحق الجحيم؟ كيف عساه يقر بأنه كان مخطئاً بشأنها، وبأنه أساء الحكم عليها، وقد فعل ذلك بناء على كلام المرأة التي لطالما شكت إميلي بأنها تحاول تدمير علاقتهما؟ أقر بمرارة أنه وثق بكلام روبين، فصدقه على كلام إميلي. صحيح أن الشكوك بدأت تنتابه بخصوص دوافع روبين، أما الآن فصار لديه إثبات قاطع جازم بأنها كذبت عليه. لم يعلم كيف يمكنه أن يصلح الألم الذي سببه. نظر لوك إلى الوراء، فوجد إميلي تجاهد كي تجاريه في الصعود. تداعت عواطفه عندما رأى وجهها المحمر الشديد العزم.

- لماذا أحضرتني إلى قمة البرج؟

طالبته إميلي فيما انضمت إليه على مصطبة الدرج الضيق، ثم نظرت خارجاً من النافذة نحو المنظر الرائع لوادي اللوار الممتد تحتهما. قالت ملاحظة ساخرة، وهي تطلق ضحكة متوترة: «آمل أنك لا تخطط لأن تدفع بي إلى الأسفل».

- لماذا تظنينني قد أرغب بأن أفعل ذلك، عزيزتي؟

رفعت إميلي رأسها عندما سمعت النبرة المثيرة للفضول في صوت لوك، فحدّقت به، ولاحظت لأول مرة خطوط التوتر حول عينيه. إنه مطلق الروعة والوسامة! مع ذلك بدا متعباً جداً وعلى حافة الإرهاق، إلى درجة أنها تاقت إلى الاقتراب منه وملامسته. عوضاً عن ذلك حشرت يديها خلف ظهرها.

قالت بهدوء: «لم نكن نتفق بشكل جيد مؤخراً. يخالجني شعور بأنك ما زلت غاضباً مني».

أقر لوك بخشونة قائلاً: «أنا غاضب... نعم. لكن ليس منكِ أنتِ، صغيرتي. غضبي موجه فقط إلى ذاتي».

من دون أن يمنحها الوقت الكافي لتعلق، فتح لوك الباب، وقادها إلى داخل الغرفة الدائرية الواسعة التي تحيط النوافذ بكل جوانبها.

- يا له من منظر رائع! ما هو هذا المكان لوك؟

غمغمت إميلي بذلك وهي تقترب إلى الأمام كي تبدي إعجابها بمنظر الوادي المذهل في الأسفل.

- إنه مشغلك، إلا إذا كنت تفضلين مكاناً آخر من القصر.

أضاف لوك بعد أن امتد الصمت بينهما: «ظننت أن المكان هنا سيعجبك. فالمنظر كما تقولين مذهل، أما الإنارة فجيدة لك لكي تعملي. قولي شيئاً».

طالبها لوك بذلك، وقد بدأت سيطرته على نفسه تنزلق من بين يديه. مرّر يده بتوتر من خلال شعره ما إن لاحظ دموعها، ثم قال: «لماذا تبكين؟ ظننتك ستسرّين».

- أنا مسرورة. أنا... مذهولة.

أقرت إميلي بذلك، وهي تفرك عينيها بقفا يدها. حركتها تلك جعلته يرغب بأن يجرها من ذراعها، ويتوسلها لتسامحه، لكنه أقر بكآبة أن الأوان فات على ذلك. استدار حول نفسه، وحشر يديه في جيبي سرواله. هنالك أمور عليه أن ينجزها أولاً، وأحداث عليه أن يحركها قبل أن يبدأ بالتوسل للمصالحة.

- أظنك ستجدين كل ما تحتاجين إليه هنا.

أخبرها لوك بذلك مثبتاً نظره بحزم على المنظر عوضاً عن وجهها، ثم تابع: «رسوماتك موجودة هنا، بالإضافة إلى عيّنات الأقمشة التي أحضرتها معك من إسبانيا. أظن أن الطاولة كبيرة بما فيه الكفاية كي تستخدميها للتفصيل والقص، أما ماكينة الخياطة فهي على المنصة تحت النافذة. دبّرت لك فتاتين من القرية كي تحضرا لمقابلتك. كلاهما درستا تصميم الأزياء والتفصيل، ويمكنهما أن تصبحا مساعدتيك، لكن القرار النهائي يعود إليك بالطبع».

أجالت إميلي بصرها في أرجاء الغرفة، فيما اغرورقت عيناها بالدموع مجدداً. التغيير غير المتوقع في رأي لوك صدمها.

أخيراً غمغمت قائلة: «لست أفهم. كنت معارضاً جداً لفكرة إنشاء عملي الخاص بي».

تكلم لوك ببطء، وهو يستدير ليواجه إميلي قائلاً: «الآن أدرك كم كنت أنانياً. هذا الأمر هام بالنسبة إليك، وعلى الرغم مما تعتقدينه، أنا أريدك أن تكوني سعيدة هنا في القصر. فهمت أن نادين تروفيير دعتك لزيارة متجرها المخصص لثياب الأطفال في باريس، وأنا مستعد لأن أسمح لك بالذهاب».

تساءلت إميلي بذهول، أهذا يعني أنه أخيراً صار يثق بها؟ أم تراه يفترض أنها سوف تترك جان كلود في القصر من دون أن تهتم سواء عادت أم لا؟

تكلمت بارتعاش، فيما جلست على كرسي: «الأمر برمته مفاجئ. كلفت نفسك الكثير من العناء، ومع ذلك قد لا تنجح فكرتي. لعلني أخدع نفسي فقط باعتقادي أنني بارعة، وهنالك احتمال بألا يرغب أحد في شراء تصاميمي».

- ما كانت نادين لتقترح بأن تسوق إنتاجك في متاجرها، ما لم تعتقد أنها ستباع.

تمهل لوك قليلاً، ثم غمغم قائلاً: «أظن أنه يجدر بك أن تذهبي إلى

باريس مع جان كلود. سوف ينفعكما أن تمضيا بضعة أيام في المدينة».

- لكنني ظننتك لا تثق بي؟ ألا تخشى أن أختفي معه؟

تلعثمت إميلي وهي تتكلم، فيما ظهر الارتباك في عينيها وهي تحدق به. أجابها لوك بثبات: «لا!».

هو لم يقدم لها الكثير من الحوافز كي ترغب في البقاء معه، لكن لعل المشغل يعمل على تضميد الجراح التي أنزلها بعلاقتهما.

- لا أصدق أنك قد تتعمدين إيذائي، كما أنك لن تقومي بتصرف يؤذي طفلنا.

- حسناً! يبدو أنك غيرت نبرة كلامك. أيمكنك أن تفسر لي سبب هذا التغيير المفاجئ؟

تلاشت لمحة المرارة من صوت إميلي، فيما غمرها الشعور بالأمل.

- آمل أن أفعل ذلك قريباً، صغيرتي.

طمأنها لوك بذلك. أما اللمحة الغامضة التي سيطرت على صوته، فجعلت نبضات قلب إميلي تتسارع بشكل منذر بالخطر. لوك يثق بها بما فيه الكفاية لكي يقدم لها حريتها. أحست إميلي كما لو أن ثقلاً كبيراً أزيح عن كتفيها. أهذا يعني أنه أخيراً صدق قصتها المتعلقة بزيارتها إلى شقته مع جان كلود؟

اقترحت بخفة: «ربما يمكننا جميعاً أن نذهب إلى باريس، فلدي ذكريات رائعة عن المرة الأخيرة التي ذهبنا فيها إلى هناك».

مشت إميلي نحو لوك فمررت يدها بخفة فوق صدره. بدا من الواضح أن لوك جهزّ لها غرفة العمل كمبادرة سلام، وهي متشوقة لقبولها. إنه مستعد لأن ينظر إلى زواجهما باعتباره شراكة، أما هي فتجاهد لأن تبرهن له أنه وجان كلود يحلان في المرتبة الأولى في حياتها.

- أنا آسف عزيزتي. لدي اجتماع طارئ في أورلينز. فيليب سوف يقلّك بالسيارة إلى باريس.

غمغم لوك بذلك، فأسقطت إميلي يدها بسرعة، فيما شعرت بوجهها يحترق حنقاً.

- فيليب؟ لكنني ظننت...

قطعت إميلي كلامها عندما صدمتها حقيقة أنه لا يثق بها كما اعتقدت في بادئ الأمر. تابعت: «يمكنني أن أقود السيارة بنفسي. أنا قادرة تماماً على ذلك».

- أنت لست معتادة على القيادة في فرنسا، كما أن الشوارع مكتظة في باريس. سوف تكونين بمأمن أكثر مع فيليب.

اتهمته إميلي قائلة: «ليست سلامتي ما يقلقك. أليس كذلك؟ همك الوحيد هو جان كلود».

- من الطبيعي أن أقلق بشأنه. بما أنني وجدته للتو، أنا مستعد لأن أهب أي شيء حتى حياتي لكي أضمن سلامته.

بدا صوته وحشياً. حدقت به إميلي فيما تابع يسألها: «هل تلومينني على ذلك؟».

- بالطبع لا!

ابتلعت إميلي ريقها لتصدّ الدموع المفاجئة التي سدّت حلقها. إن سلامة جان كلود تأتي بالدرجة الأولى بالنسبة إليها أيضاً، لكن لوك وجه لها رسالة واضحة جداً بأنه غير مهتم بسوى ابنه. لاشيء تغير! على الرغم من أنها حتماً لم تتضايق من حقيقة أن جان كلود يأتي بالمرتبة الأولى في قائمة أولوياته، لكن آلمها بشكل لا يصدق علمها أنها تحل في المرتبة الأخيرة. فكرت إميلي ببؤس أن هذا يعزز الفكرة التي بدأت منذ طفولتها، لطالما شعرت كما لو أنها مجرد قطعة إضافية احتياطية. ألا تستحق أن يحبها أحدهم بجلاء لنفسها فقط؟ أحنت رأسها وهي تحاول يائسة إخفاء بؤسها، لكن لوك قبض على ذقنها، ورفع وجهها نحوه.

- ما الأمر، صغيرتي؟ ألم تحبي مشغلك؟

أجابت إميلي بصدق: «إنه رائع، لكنه لا يغير أي شيء».

إنها لا تستطيع أن تعيش حياتها وهي تحبه إلى درجة تثير السقم في داخلها، بينما يقوم لوك بمعاملتها كما لو أنها نسيبته المفضلة. لا يمكنها لومه لأنه لا يحبها. تقبّلت إميلي ذلك بحزن، لكن من أجل حفاظها على نفسها، هي لا تستطيع البقاء معه.

- لن ينجح الأمر.

قالت له ذلك بفظاظة، فضاقت عينا لوك.

- أتعنين المشغل؟

- أعني نحن... أنت وأنا. لا يمكنني أن أبقى معك وأنا أعلم أنك لا تثق بي.

قال لوك بتثاقل: «إنها ليست مسألة ثقة».

تنهدت إميلي معبّرة عن إحباطها: «إنها مسألة مشاعر، أو بالأحرى افتقارك إليها».

صرخ لوك بحدّة: «أنا أحب جان كلود. كيف يمكنك أن تشكي بذلك؟».

- أنا لا أشك بذلك؟

خفّ غضب إميلي بنفس السرعة التي جاء فيها.

- لن أسمح لك أن ترمي ما لدينا. أنا أعطيك وعدي بأن زواجنا سيحظى بالتزامي التام.

تذمرت إميلي قائلة: «ما دمت أعيش في القصر، ولا أصطحب جان كلود معي إلا إذا رافقني سجّانك، بينما نبقى أنا وأنت بعيدين جداً عن بعضنا كما كنا دوماً، فلا نجتمع سوياً إلا في السرير. هذا لا يبدو لي حياة مثيرة جداً، لوك».

جرش لوك على أسنانه قائلاً: «إنها الحياة الوحيدة التي ستحظين بها. لن أسمح لك بالذهاب إميلي».

تبعها عبر أرجاء الغرفة بينما حاولت إميلي أن تضع مسافة بينهما. قال لها بصوت أبح: «إذا كانت علاقتنا الزوجية هي الطريقة الوحيدة لأربطك بي، فليكن. أنا لم أسألك قط إذا ما كنت تتناولين حبوباً لمنع

الحمل في تلك اللحظات، كما أنني لم أستخدم أية وقاية بدوري، لذا قد تكونين حاملاً. هل فكرتِ بذلك».

إنها لم تفكر بأي شيء آخر خلال الأيام القليلة الماضية، لكن الآن ليس الوقت المناسب لتقر بشكوكها. لوك قريب جداً منها وشديد السيطرة عليها. شهقت إميلي عندما حملها فجأة فوضعها على الطاولة.

- أنت لا ترغب بالمزيد من الأطفال. إنك لم ترغب بطفلنا الأول.

قالت إميلي ذلك بتوتر، فيما انطلق لسانها ليرطب شفتيها. أخبرها ببرودة: «لطالما أردته، ولو لم أكن أرغب بالمزيد من الأطفال لحرصت على ألا تحملي ثانية. أنا أود كثيراً أن أراك حاملاً بطفلنا الثاني».

لم تقوَ إميلي على كبت ارتعاشة خجولة مرت خلال جسدها. استشعرت برائحة عطر ما بعد الحلاقة المسكي الرجولي، متمازجة مع رائحة رجولية خفية أخرى يتمتع بها لوك بشكل أساسي. تحركت يد لوك لتقبض على مؤخرة عنقها، وقربها إليه ليعانقها عناقاً متوحشاً. توسلته قائلة: «أرجوك، لوك!».

إنها لا تستطيع أن تسمح له بأن يسيطر عليها. كل ما يتطلبه الأمر هو لمسة واحدة منه كي يشعلها.

- أرجوك، لا تفعل هذا!

همست إميلي بانكسار، فتصلب لوك وبدت عيناه مغشيتين وهو يحدق بها. تحدّاها قائلاً: «ألأنك لا تريدينني أن أفعل هذا، أم لأنك تريدين الحصول على حريتك؟ أنت زوجتي، عزيزتي. وأقترح عليك أن تتقبلي هذا الواقع لصالحنا جميعاً».

انتفض مبتعداً عنها، فمشى بخطوات واسعة نحو الباب، بينما حاولت إميلي أن تسيطر على جسدها. صرخت: «إلى أين أنت ذاهب؟».

- إلى الجحيم! أنت تودين أن ترسليني إلى هناك. أليس كذلك؟

جاء رد لوك الفظ قبل أن يختفي. وما إن سمعت إميلي وقع قدميه على الدرج، حتى دفنت وجهها بين يديها، وأجهشت بالبكاء.

٩ - أنا أكرهه!

أمضت إميلي بقية نهارها وهي تقوم برعاية جان كلود الذي نبتت له سن، فعزم على جعل الجميع يعلمون بذلك. كان لوك قد اختفى، أما مزاج إميلي فتراوح بين الشعور بالبؤس والشعور بالغضب، ليتحول أخيراً إلى أمل ضعيف باهت بأنه ما زالت هنالك فرصة أمام زواجهما. عنّفت إميلي نفسها أنها بالغت في ردة فعلها قبل قليل. وتصرفت كطفل سخيف غير ناضج تماماً مثلما قال لها لوك يوماً، لكنها أملت أن يقبل لوك اعتذارها.

تلاشى ذاك الأمل بسرعة عندما دخلت إلى غرفة الطعام لتناول العشاء، فلاحظت أن مكاناً واحداً تم تجهيزه إلى الطاولة الطويلة المصنوعة من خشب الماهوغاني.

سألت فيليب: «هل سينضم إلي السيد فايلون؟».

- أخشى أنه لن يفعل، سيدتي. لأنه ذهب إلى أورلينز ولا يتوقع أن يعود قبل يوم غد.

- فهمت!

خيبة أملها بدت واضحة، لذا غمغمت قائلة: «في هذه الحالة أظنني سأتناول عشائي على صينية في غرفة الجلوس. سأذهب وأبدل ملابسي».

أشرقت تعابير وجه رئيس الخدم الذي يبدو عادة غير مبال إلى شيء يشبه ابتسامة الشفقة، ما زاد من إحساسها بالسوء. أسرعت إلى الطابق العلوي متسائلة للمرة المئة لِم تراها قررت أن ترتدي الفستان الحريري الأزرق المخصص للسهرات الذي اختاره لها لوك. أقرّت إميلي وهي

تعلق فستانها وتعيده إلى الخزانة، بأنها أرادت أن ترضي لوك. أرادت أن تشكره على إصغائه لأفكارها المتعلقة بشركة خياطة ملابس الأطفال التي أملت أن تؤسسها، بعد أن عارضها كثيراً. كان لوك قد أقسم على أنه يريد أن يمنح زواجهما فرصة ثانية، وتجهيزه للمشغل الخاص بها خير دليل على التزامه بذلك، لكنهما مرة أخرى افترقا بسبب سوء التفاهم وبسبب قلة ثقتها البائسة بنفسها.

دفع فيليب عربة الطعام إلى غرفة الجلوس، معلناً أن سيلفي حضّرت طبق البويلابيز المفضل لديها، لكن ما إن رفعت سيلفي غطاء الطبق، حتى تملك إميلي الشعور بالغثيان فهربت بسرعة من الغرفة. بعد عشر دقائق، خرجت مترنحة من الحمام، واستلقت منهكة على السرير. فكرت بتجهم أن هذا ليس اضطراباً عادياً في المعدة.

قررت أن ليس هنالك سوى أسلوب واحد لكي تريح بالها. قفزت من السرير، وعادت إلى الحمام لتجلب جهاز فحص الحمل من حيث خبأته في مؤخرة الخزانة. عليها أن تعرف إذا ما كانت حاملاً بطفل آخر. بعدئذٍ مرت عليها أطول خمس دقائق في حياتها، مع ذلك لم تكن إميلي مستعدة للحقيقة الصاعقة.

هناك طفل! ابن لوك الثاني! لم تعرف إميلي إن كان يجدر بها أن تضحك أم تبكي، فاستسلمت لكلا الأمرين، إذ تأرجحت مشاعرها بين السرور والهلع. ما الذي سيقوله لوك؟ أتراه سيشعر بالسرور أم بالغضب؟ هل سيتهمها بالحمل عن تعمد، مثلما فعل عندما حملت بجان كلود؟ وهل تراه سيبتعد عنها مثلما فعل في المرة الأولى؟ إنها لا تستطيع أن تنتظر حتى يعود من أورلينز، لتطلعه على الخبر وتقيس رد فعله. تجاهلت صوت التحذير الخافت في داخلها، فهرعت نزولاً إلى مكتب لوك. فكرت بانزعاج أن من السخف أن يدق قلبها بهذه السرعة، وأن تشعر كما لو أنها تتطفل على مقره الخاص. أضاءت النور، وعلى الفور لفت انتباهها صف من الصور الموضوعة على مكتبه، فحرقت الدموع عينيها وهي تتمعن بها. لم تكن صوراً لجان كلود، كما

افترضت، بل لها. إحدى هذه الصور التقطت لها في الاصطبلات في هيستون غرانج. بدا شعرها مشعثاً فيما اتخذت وضعية غريبة أمام الكاميرا. أما الصور الأخرى فالتقطت خلال نهاية الأسبوع الساحرة التي أمضياها في باريس في بداية زواجهما.

أعادت إميلي الصور المؤطرة إلى مكتب لوك، فلاحظت اسماً مخربشاً على دفتر ملاحظاته. لابد أن «لافاييت» هو اسم الفندق الذي ينزل فيه. خمّنت ذلك وهي تدعو أن تكون موظفة الاستقبال قادرة على التكلم باللغة الانكليزية، بينما طلبت رقم الهاتف.

أكدّت موظفة الاستقبال لإميلي قائلة: «نعم. لدى السيد فايلون حجز في جناح بلازا، لكنه في اجتماع عمل، وقد ترك لي تعليمات صارمة بأنه لا يود أن يتم إزعاجه».

فسرت إميلي لها بسرعة قائلة: «أنا زوجته. سوف يتكلم معي».

تذمرت موظفة الاستقبال: «السيد فايلون أعطاني تعليمات محددة جداً».

بدأ مزاج إميلي يغلي تماماً كأعصابها، فقالت: «إنها حالة طارئة. أنا أصرّ على أن تصليني به».

تبع ذلك لحظات من الصمت قبل أن تسمع صوت لوك على الطرف الآخر من الخط.

- إميلي، ما الخطب؟ قالت لي عاملة الهاتف إنها حالة طارئة. أهو جان كلود؟ هل هو مريض؟

بدا الخوف واضحاً في صوته، فأسرعت إميلي تطمئنه، قائلة: «جان كلود بخير. أردت أن أتكلم معك...».

توقفت إميلي عن الكلام إذ زمجرت تنهيدته النافذة الصبر في أذنها، إذ قال: «أنا منشغل، عزيزتي. ألا يستطيع الأمر الانتظار؟».

همست إميلي ببطء قائلة: «نعم... بإمكانه الانتظار».

ركلتها الحقيقة بقوة من جديد، فتابعت تقول: «أنا آسفة، ما كان يجدر بي أن أزعجك».

تكلم لوك برقة أكبر: «سأعود إلى المنزل يوم غد. سنتحدث حينها. أعدك».

- حسناً!

قطعت إميلي الاتصال، وجلست تحدق بصورها. فكرت بمرارة أنها حمقاء غبية مضللة. جل ما أملت به هو القليل من الحب، لكن يبدو أن ذلك طلب كبير تسأله إياه.

وصلت إلى غرفة النوم، فارتمت على السرير وأخذت تنشج وتبكي. إنها عالقة في زواج خال من الحب، ومربوطة بحبال ابنها وتلك الحياة الجديدة الموجودة في أحشائها.

* * *

- لِم لا تدعيني أعتني بجان كلود لبضع ساعات؟

سألتها ليز ذلك صباح اليوم التالي، وهي تراقب إميلي التي تجاهد لتجبر نفسها على تناول الفطور. أضافت: «سيكون مسروراً جداً معي».

كيف يمكنها حتى أن تفكر بأن تأخذ جان كلود بعيداً عن القصر؟ هذا منزله، وهو يحب المكان. ليس من العدل أن تنتزعه من جذوره. إنها غير قادرة على تركه ولا تنوي أن ترحل من دونه، لكن كيف عساها تتمكن من البقاء في زواجها الخالي من الروح؟

توقف المطر أخيراً تاركاً خلفه الغيوم الرمادية. أحست إميلي بالسرور لترك جان كلود بعهدة ليز، بينما لجأت هي إلى المكان الذي تحبه أكثر من غيره... الإصطبلات.

- أنا أكرهه!

أخبرت قاسم بذلك بوحشية، فيما بدا الغضب دفاعها الوحيد ضد الدموع. إنها ترفض أن تبكي بسبب لوك بعد الآن! بردّة فعل مفاجئة قامت إميلي بسرج الحصان، وقادته إلى الخارج.

- انتظري سيدتي! ليس من الأمان أن تخرجي بمفردك.

أسرع سائس الخيل خلف إميلي عبر الباحة، فنظرت إميلي نحو وجهه القلق بنفاد الصبر. ما عناه هو أن لوك منعها من امتطاء قاسم

بمفردها، لكنها سئمت من اتباع الأوامر، كما أن لوك ليس هنا الآن.

وصلت إميلي إلى الحقل، فحثّت الحصان على الجري باعتدال، وصرخت لسائس الخيل قائلة: «لا بأس! لن أتأخر. كف عن القلق. يمكنني أن أتولى أمر قاسم».

بعد مرور ساعة من الزمن مشى لوك بخطوات واسعة إلى الإصطبلات، فيما بدت تعابيره راعدة ما يعطي دليلاً على مزاجه السيء.

- ما الذي تعنيه بقولك إنها رحلت؟

اضطر إلى ضبط نفسه كي لا يمسك بسائس الخيل من عنقه، فيهزّه بقوة، كي يستخرج منه المعلومات التي يريدها. تابع قائلاً: «أعطيتك تعليمات واضحة صارمة بألا تأخذ السيدة فايلون حصانها بمفردها».

- حاولت أن أخبرها بذلك، لكن السيدة ذهبت بكل بساطة.

هزّ الرجل كتفيه باستسلام، وللحظة أحس لوك بوخزة تعاطف معه. إنه لا يقلل من قدر تصميم إميلي على الحصول على مبتغاها.

تذمر لوك وهو يمتطي حصانه قائلاً: «كان يجدر بك أن تلحق بها. في أي اتجاه ذهبت؟».

- سيدي!

شيء ما في صوت سائس الخيل جعل لوك ينظر إلى الوراء. تحولت الخشية إلى خوف كامل تماماً عندما رأى قاسم يعدو مسرعاً إلى الباحة، لكن من دون أي شخص يمتطيه. بدأت الأمطار تنهمر فتبلل وجهه، لذا أطلق لوك شتيمة وحشية، ثم ركل الحصان لينطلق بعدو مسرع.

بدا قاسم أكثر حماسة من المعتاد بعد أن أمضى أياماً في الإصطبل بسبب تساقط الأمطار، ما تطلب من إميلي كل قوتها كي تردعه. كانت الأرض مشبعة بمياه الأمطار، فأحست إميلي عدة مرات بحوافر قاسم تنزلق. لكن يبدو أن ذلك زاد من إحباطها. من بين كل التصرفات الحمقاء التي قامت بها في حياتها، هذا هو التصرف الأسوأ، ونزلت بحذر عن الحصان. كيف أمكنها أن تعرض هذا المخلوق البشري

الصغير الذي تحمله في أحشائها للخطر، ولو للحظة واحدة؟

أجفل قاسم عندما سمع صوت دراجة نارية تنطلق مسرعة على طريق مجاور، فانتزع اللجام من يدها.

- قاسم! مهلاً، مهلاً...

نادته إميلي بهلع، لكنه عبر الحقل مسرعاً. أخذت الأمطار تتساقط، فاختفى قاسم في الضباب. لم يكن بمقدورها إلا أن تصلّي بأن يتوجه عبر دروب مألوفة نحو الإصطبلات، لكن يبقى أمامها أن تسير مسافة طويلة عبر الحقول الموحلة على كاحلها الذي أخذ يؤلمها عندما تلقي وزن جسدها عليه. من الجيد أن لوك مسافر. سوف يشعر بالهيجان والسخط العارم لأنها خالفت أوامره. حتى إنه قد يبيع قاسم، كما هددها مرة من قبل. حثّتها هذه الفكرة لأن تسرع أكثر، لكن ما إن اقتربت من البوابة حتى ظهر أمامها شخص من الضباب فتباطأت في خطواتها.

بدا لوك من البعيد كما لو أنه فارس من القرون الوسطى. ما إن حثّ الحصان على السير قدماً، حتى استطاعت إميلي أن ترى أنه يلبس كنزة سوداء سميكة التمعت بحبيبات المطر اللامعة. من غير المنصف أن يبدو لوك جذاباً مدمراً على الرغم من أنه مبلل بالماء، فيما أدركت إميلي بألم أن ملابسها ملطخة بالوحول.

- ما الذي تحاولين أن تفعليه بحق الجحيم؟

زمجر لوك بذلك عندما توقفت إميلي على مسافة بعيداً عنه. دفعتها الشجاعة إلى ثني ذراعيها فوق صدرها، فيما راحت تحملق نحوه.

- يمكنني أن أطرح عليك السؤال نفسه. كيف كان اجتماع العمل؟ لابد أنه كان هاماً جداً كي يمنعك من التحدث إلى زوجتك.

أضافت بوهن: «لكن ربما لا، فأنا أقع في آخر مكان من قائمة أولوياتك. ألست كذلك لوك؟».

- لا تكوني سخيفة! بالطبع أنت هامة بالنسبة إلي. هل تأذيت عندما سقطت عن الحصان؟

- أنا لم أسقط عن ظهر قاسم.

تذمرت إميلي بتسرع.

- ما الذي حدث إذاً؟ جاء قاسم إلى الإصطبلات منذ أكثر من ساعة من الوقت. أتقولين لي إنك اخترتِ أن تعودي سيراً على القدمين تحت المطر وكاحلك ملتوٍ، فقط لكي تستمتعي بذلك؟

- إنه ليس ملتوياً. أنا فقط تعثرت وسقطت عليه بقوة. هل قاسم بخير؟ أنت لن تبيعه. أليس كذلك؟

توسلته إميلي، وقد بدت عيناها واسعتين في وجهها الشاحب.

- الحصان بخير. مع ذلك ما زال أمامي أن أقرر إذا كنت سأحتفظ به. عرفت أنه قوي جداً عليكِ.

- إنه ليس...

- اصمتي، واعطيني يدك!

قاطعها لوك، وقد التمعت عيناه، فأحست إميلي أن غضبها يتفاقم. القلق البادي على وجهه، هو على الأرجح بسبب تعريضها هذا الحصان الثمين إلى الخطر.

- يمكنني أن أتدبر أمري، شكراً.

- إي... مي... لي! بمقدوري أن أقتلك الآن، لو أنك لست عازمة جداً على أن تفعلي هذا بنفسك.

انحنى لوك نحوها، فقبض على ذراعها ثم رفعها على السرج أمامه بسهولة، كما لو أنها مجرد دمية. في الحال طوقها بذراعيه، فثبتها بملاصقة صدره. أغمضت عينيها بيأس، فيما غمرها الشعور بالشوق إليه.

هزّ لوك لجام الحصان، فساروا قدماً بخطى بطيئة وثابتة تحت المطر. جل ما استطاعت إميلي أن تفكر فيه هو صلابة جسد لوك الذي يضغط على جسدها، فتسارعت أنفاسها. بدأت الحرارة تنتشر في أرجاء جسمها من حيث استلقت يد لوك بثقل على خصرها.

- ارفع يديك عني. لا يمكنك أن تلامسني عندما يرغب مزاجك

بذلك، وحين لا تكون شديد الانشغال. ليلة الأمس لم تستطع حتى أن تزعج نفسك بالتكلم معي.

اتهمته إميلي بذلك متعمدة أن يحمل صوتها الغضب، لكنه عوضاً عن ذلك بدا منكسراً وممتلئاً بالبؤس.

- أمضيت معظم الوقت ليلة الأمس وأنا أقود السيارة في أرجاء أورلينز محاولاً استجماع الشجاعة الكافية لمواجهتك.

- أنا لا أصدقك، وحالما نصل إلى القصر سوف أهجرك. أنا أرفض أن... تذلني أكثر بعد.

- لن أدعك ترحلين، عزيزتي.

صمتت وهما يدخلان إلى باحة الإصطبلات. نزل لوك عن الحصان، ثم رفع إميلي وأنزلها على الأرض. في الحال استدارت إميلي على عقبيها، عازمة على أن تسير عائدة إلى القصر.

- انتظري! أريد أن أتكلم معك.

لسعها صوت لوك كالسوط، فاستدارت حول نفسها، فيما السخط والحنق ينضحان من جسدها، لكن لوك تجاهلها وراح يتكلم مع سائس الخيل. فكرت إميلي بغضب شديد أنها لن تجلس لاهثة عند عقبيه كالكلب الوفي، فانسلت إلى داخل الحظيرة. إنها ليست في مزاج يسمح لها بالإصغاء إليه، فهي ما تزال مرتبكة بسبب إقراره بأنه كان بحاجة إلى استجماع شجاعته قبل أن يعود إلى القصر. لعله يريد أن يعلن لها بأنه يريد الطلاق!

مرت بضع دقائق، فاستلقت إميلي إلى الخلف على القش، وهي تتساءل إن كان من الأمان أن تخرج من مخبئها. لابد أن لوك بدأ يسير عائداً إلى القصر لاعتقاده أنها تتقدمه إلى هناك. غاص قلبها عندما صرّ باب الحظيرة وانفتح. اللعنة! لا يمكنه أن يجدها هنا. ربضت إميلي أعمق في القش، وهي تحاول كبح عطسة، لكن ذلك لم يجدِ نفعاً، وسرعان ما هز أعصابها صوت ضحك لوك الساخر.

- ما كان بمقدوري أن أختار مكاناً أفضل من هذا لنتحدث

بخصوصية، عزيزتي. أريد أن أتكلم معك بخصوص روبين.

- إذاً حضّر نفسك لأقصر محادثة في التاريخ، فمن بين كل المواضيع التي أحب أن أتكلم بشأنها، روبين ليست إحداها.

فعلت ابتسامة لوك أشياء غريبة بأحشائها، فجرجرت إميلي نظراتها بالقوة بعيداً عن منظر ثيابه المبللة التي التصقت بجسمه بشكل محبب. فجأة بدأت أسنانها تصطك، فقالت لنفسها: إن هذه ردة فعل على كل ما حدث خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، ولأنها ترتدي ملابس مبللة. لا علاقة لذلك إطلاقاً باقتراب لوك منها.

- لماذا تفترض أنني أرغب في التحدث عنها؟

قذفته إميلي بهذا السؤال، ثم شعرت بالارتباك حين تمدد لوك إلى جانبها، مسنداً جسمه على مرفقه، ثم راح يداعب خدها بحزمة صغيرة من القش. قال لها بهدوء: «أعلم أنها كذبت».

تمهل للحظة ليقيّم ردة فعلها، قبل أن يتابع قائلاً: «أعلم أنك عدت إلى شقة شيلسيا مع جان كلود بعد ولادته بفترة قصيرة. التقيتها ليلة أمس في أورليتز، وذلك هو السبب الذي منعني من التكلم معك».

شهقت إميلي قائلة: «يا إلهي! أيها الوغد. أمضيت الليل معها، وأنا صدقتك فعلاً عندما أنكرت إقامتك علاقة غرامية معها.».

حاولت أن تنقلب وتبتعد عن لوك، لكنه أسر ذراعها.

- أنا لم أمض الليل برفقتها. طلبت منها أن تلاقيني في الفندق، لأنني لم أحتمل أن تأتي إلى القصر.

فسّر لها لوك ذلك، وتابع: «بعد أن أخبرتني عن زيارتك إلى الشقة، قررت أن أتحقق من بضعة أمور مع مدبرة منزلي. أخبرتني أنها واثقة من أن أحدهم أقام في الشقة أثناء وجودي في أفريقيا الجنوبية، وذلك أثبت قصتك».

فغمغمت قائلة: «إذاً، أخيراً صدقت أنني أحضرت جان كلود إليك. روبين كذبت، لأنها مغرمة بك. لكن أين سيتركنا ذلك؟».

قالت له إميلي ذلك بهدوء، متسائلة كيف تراه استطاع أن يكون

أعمى إلى هذه الدرجة. أغمضت عينيها، وحاولت أن تتخيل ما كانت ستؤول إليه الأمور لو أن لوك كان في الشقة ذاك اليوم بدلاً من روبين. بالرغم من برودة لوك تجاهها خلال فترة حملها، فهي لا تشك في أنه يريد ابنه. إنه يحب جان كلود، لكنها ما زالت لا تفهم الدور الذي تمثله هي في حياته. إنها تحبه، لكنه لا يحبها. لم يتغير أي شيء، وهي غير قادرة على الاستمرار في الادعاء أنها راضية بينما هي تتداعى. قالت: «أظنني أود أن أعود إلى إنكلترا لفترة من الزمن، وأن آخذ جان كلود معي لنقابل عائلتي. أنا لن آخذه منك لكن...».

ترددت إميلي للحظة، وتابعت: «أظنه يجدر بنا أن نمضي بعض الوقت منفصلين».

تكلم لوك بتثاقل: «أستهجرينني؟ أنا أستحق هذا، لكن عليك أن تصدقي أنني آسف إلى حد اليأس بسبب تصديقي لروبين بدلاً منك، وأقسم لك عزيزتي أنني سوف أعوض لك».

أذهلها الالحاح البادي في صوت لوك، لكنها ذكرت نفسها بأنه خائف من أنها لو أخذت جان كلود إلى إنكلترا، فإنها لن تعيده أبداً. قالت ببؤس: «الأمر لا يتعلق فقط بروبين. لو أننا وثقنا ببعضنا البعض أكثر، لاكتشفنا كذبها قبل أن نتعرض لأي أذى حقيقي. لذا أنا بحاجة إلى بعض الوقت كي أفكر».

لكن ما إن تحركت لتهم بالوقوف، حتى عاد لوك وجذبها إلى الأسفل.

غمغم بصوت أجش: «لا يمكنني أن أدعك ترحلين. مكانك هو هنا في القصر، أنت وجان كلود».

التغيير الخفي في نبرة صوت لوك بدا كافياً لينبه دفاعاتها، فدفعت كتفيه بلا فائدة، وقد أحست فجأة باليأس كي تفعل شيئاً ما قبل أن تتصرف بشكل أخرق، كأن تتوسله كي يعانقها.

- أنت كنت لي منذ اللحظة الأولى التي وهبتني نفسك، وأنا أحرس ممتلكاتي بقوة. لعله آن الأوان كي أبرهن هذا الواقع.

توبيخ لوك الساخر شحذ دفاعاتها، فقررت أن تدير رأسها، لكن لوك تحرك بسرعة فعانقها بقوة سرقت الأنفاس من جسدها، وأخذت معها آخر بقايا عزة نفسها، إذ برهن لها من دون شك بأنه سيدها.

بعد قليل رفع لوك رأسه، وحدق نحوها، وقد التمعت عيناه كأنهما تحذرانها.

ذكرته إميلي: «قلت إنك تريد أن نتكلم».

أطلق لوك ضحكة خشنة وهو يقول: «حاولنا أن نتكلم، ولم يوصلنا ذلك إلى أي مكان. هذه هي الحقيقة الوحيدة الدائمة بيننا، عزيزتي. أنت ترغبين بي بمقدار ما أرغب بك تماماً».

فارتعشت إميلي وهي غير قادرة على نكران الحقيقة.

- لوك!

لكن ما إن عاد لوك ليعانقها من جديد وقد ازداد عناقه عمقاً، حتى أحست بالخطر المحدق بها، فصاحت به: «لا!».

أحست كأن عناقه أداة للتعذيب، استخدمها بلا رحمة ملهباً أعماقها بحميمية. لبرهة قصيرة لم يعد هناك شيء سوى دفء جسده الذي يلامس جسدها. ابتعد لوك عنها قليلاً، ثم قال من دون أن تفارق عيناه وجهها: «أنت لا تريدين حقاً أن تهجريني! لا أحتمل رؤيتك ترحلين. استمعي إلى قلبك عزيزتي، فهو أدرك الحقيقة الموجودة بيننا».

تعرف إميلي تماماً ما يقوله قلبها، لكن قلب لوك هو الذي يشكل لغزاً. تنهدت واستدارت مبتعدة عنه.

- بحق السماء! ما الذي فعلته بمرفقك؟ إنك تنزفين.

بدا وجه لوك أبيض شاحباً بسبب القلق. ألقت إميلي نظرة على مرفقها، ولاحظت أن قميصها ملطخة بالدم أيضاً. طمأنته قائلة: «أنا بخير. إنها مجرد خدوش تعرضت لها».

جذبها لوك إلى صدره، كما لو أنه يحاول يائساً أن يطمئن نفسه بأنها لم تصب بأذى. زمجر بصوت ينضح بمقت الذات: «إنك شاحبة جداً، وأنا لست أفضل من سلفي البربري ذاك».

إنها صغيرة جداً ورقيقة وسريعة العطب جداً، أما هو فخذلها بشكل سيء جداً. فلا عجب أنها تحدق إليه بعينين كبيرتين خائفتين.

- خذي! اشربي هذا.

أمرها لوك بذلك وهو يسحب قارورة معلقة على الجدار. تحول وجه إميلي إلى لون سقيم عندما فك لوك الغطاء، فاشتمت رائحة مشروب قوي.

غمغمت بوهن وبصوت خافت: «هذه ليست فكرة جيدة».

بدت إميلي أشبه بالميتة، فأسره الشعور بالخوف المريع. صاح بها: «ما خطبك؟».

أتراها كذبت عليه؟ هل رماها قاسم على الأرض، أما هي فبقيت صامتة خوفاً من غضبه؟

- يا إلهي، إميلي! عليكِ أن تشربي هذا.

أطبقت إميلي شفتاها الزرقاوان بعزم وتصميم، وقد أحنت رأسها إلى الأمام، وتابعت: «لا يمكنني لوك... أنا حامل!».

١٠ - وانقشع الضباب

- لِم بحق الجحيم لم تخبريني؟

فتحت إميلي عينيها، فوجدت نفسها في غرفة النوم في القصر. كان لوك منحنياً فوقها، وقد بدا وجهه شاحباً من شدة الحنق، فأخفضت إميلي أهدابها مجدداً.

- سيد فايلون! الطبيب وصل.

قاطعت نبرات ليز الهادئة ذاك التوتر الذي يغلي على نار هادئة، فسمعت لوك يتمتم شيئاً ما قبل أن يتراجع إلى الخلف.

- نادني لحظة ينتهي الطبيب.

أعطى لوك تعليماته لليز، ولم تفتح إميلي عينيها إلا حين سمعت صوت صرير مفصلات الباب وهو ينفتح. طمأنتها ليز قائلة: «إنه فقط منزعج. فقد أرعبته عندما انهرتِ هناك في الاصطبل. ركض طوال طريق العودة إلى القصر وهو يحملك بين ذراعيه. الصدمة تفعل أموراً غريبة بالناس، ولابد أن تقرّي أنها طريقة دراماتيكية فعلاً لإعلان خبر حملك. إنه خائف عليك. هذا كل شيء».

أنهى الطبيب فحصه، فطمأنها أنها امرأة سليمة جداً وفي أولى مراحل الحمل. عندما عادت ليز إلى غرفة النوم، سألتها إميلي بتسرع: «كيف بدا لوك؟ لست واثقة من شعوره حيال أن يصير والداً من جديد».

ردت ليز بنعومة: «لو سألتني أنا، فأظنه سيطير فرحاً. إنه يحب جان كلود حباً جماً».

أقرت إميلي بوهن أن ليس هنالك من خلاف حيال مشاعر لوك تجاه ابنه. ،لكن مشاعره تجاه زوجته هي مسألة مختلفة. إنه لن يدعها ترحل

الآن، لكنه يريدها لأسباب خاطئة بالنسبة إليها.

نصحها الطبيب بأن تستريح، وهذا ما ستفعله. توجهت إميلي نحوالحمام المتصل بغرفة النوم، فملأت حوض الاستحمام وأضافت إلى المياه قبضة من الأملاح المعطرة التي تزيل التوتر.

- إذاً لم تكتفِ بإرعابي بعد ظهر هذا اليوم، وأنت الآن تحاولين إغراق نفسك!

سمعت إميلي الهمدرة الساخطة من مدخل الباب، ما جعلها تفتح عينيها فجأة. شعرت بالرعب حين أدركت أن الماء كاد يصل إلى مستوى ذقنها. شبكت ذراعيها على الفور فوق صدرها، وقد التهبت وجنتيها عندما أدركت بأن الأوان كان قد فات على الشعور بالخجل والحياء. قالت بسرعة: «ما الذي تريده؟».

- أن نتكلم.

غمغم لوك بهذا الكلام، فيما ابتعد عن الباب، وتمشى نحو إميلي. دلّ شعره الرطب على أنه استحم حديثاً.

لم تقدر إميلي على قول أي شيء، فجلست بسكون في المياه التي أخذت تبرد بسرعة، وقد تحدّته بالاقتراب أكثر. بالطبع، هذا ما فعله لوك وهو يحمل لها منشفة استحمام.

- يمكنني أن أتدبر أمري.

وقفت وهي تطلق تنهيدة تنم عن نفاد الصبر، فخطت من فوق حافة حوض الاستحمام، سامحة للوك أن يلفها بالمنشفة. لكن تعابير وجهه الرقيقة الهادئة حذرتها بأنه عازم على أن يلعب دور الراعي لها، بعد قليل، أزلق رداء النوم من فوق رأسها، فرفعت حاجبيها باستفسار صامت.

- أنا بحاجة لأن تكوني مغطاة حينما نتحدث، وذلك لصالح سلامتي العقلية، لكنني عجزت عن إيجاد القميص القطنية المحتشمة التي تصرّين على ارتدائها.

قبل أن تتمكن إميلي من تركيب رد ما، حملها لوك فجأة بين ذراعيه

نحو غرفة النوم، حيث وضعها بين أغطية السرير. عاملها لوك بشيء يشبه التبجيل، كما لو أنها غالية جداً بالنسبة إليه. لابد أن هذا وهم. فكرت إميلي بذلك بينما تجمعت الدموع في عينيها.

- هل أنت غاضب.

استفسرت إميلي بارتعاش.

حدّق لوك نزولاً نحو وجهها الذليل، فتنهد وقال: «أنا لست غاضباً منك. أنا ألوم نفسي».

- جيد. فأنا ألومك أنت أيضاً.

بدا من الواضح أنه ليس مسروراً بخصوص الطفل، وفوجئت إميلي لمدى الألم الذي سببته لها معرفة ذلك. كان يجدر بها أن تتوقع هذا، فردة فعل لوك تجاه حملها بجان كلود ما زالت حية في ذهنها. وتمنت لو أنه يرحل، لكي تتمكن من البكاء بمفردها.

- ألا تريدين هذا الطفل؟

نظرت نحوه، فلاحظت الخطوط حول فمه. قالت هامسة: «بالطبع أنا أريده... أو أريدها. موقفي حيال الأمومة لم يكن يوماً موضع شك. لكن ماذا عنك، لوك؟ لابد أنها ضربة مفاجئة أن تعلم بأنك ستصير أباً للمرة الثانية».

- الأمر لا يتعلق بعدم رغبتي في إنجاب الأطفال.

قال لوك ذلك بصوت خشن، فيما قفز ناهضاً على قدميه، وخطا متململاً حول السرير. لكن العذاب البادي في عينيه هو ما أسر نظرات إميلي.

- لطالما أردت جان كلود. عليكِ أن تصدقيني.

غمغم لوك بذلك، فيما بدت لكنته الفرنسية واضحة في ألفاظه، حتى إنها اضطرت إلى التركيز لتفهم كلماته.

- لكنني كنت خائفاً جداً... خائفاً عليكِ. في المرة الماضية عندما فشل أسلوب منع الحمل كان هنالك عذر ما، لكن هذه المرة كان إهمالاً صرفاً من جهتي أنا.

أقر لوك بذلك، ثم تابع: «لم أقوَ على منع نفسي. أنت تسرين في دمائي إميلي. إنك موجودة في قلبي. ما إن ألقيت نظرة واحدة إليك، حتى علمت أنه لابد لي أن أحصل عليك من جديد. إنه أمر أشبه بالهوس. النتائج المحتملة هي آخر شيء تبادر إلى ذهني خلال علاقتنا الحميمة. مع ذلك كان يجدر بي أنا، أكثر من أي شخص آخر، أن أكون مدركاً للعواقب التي تنتج عن إهمال مماثل. فبسببي أنا توفيت سابين».

لم تقوَ إميلي على احتمال رؤية العذاب في عينيه أكثر من ذلك، فمدت يدها نحوه وجذبته إلى السرير، قائلة: «لوك! موت سابين كان فاجعة مريعة، لكنه لم يكن ذنب أحد. الحمل الخارجي حالة نادرة نسبياً. ما كان بمقدورك أن تعلم أن ذلك سيحصل، وما كان بمقدورك القيام بأي شيء كي تمنع حصوله».

- لكن هذا ليس صحيحاً، ألا ترين؟

تابع يقول: «أنا لم أحبها. أشك في أنني أحببتها يوماً. عندما تعارفنا كنت متعجرفاً أنانياً، وبالنسبة إلي كانت هي شهوة من النظرة الأولى، لكن الصدوع بدأت تظهر بشكل مبكر في زواجنا. سابين كانت مهووسة بفكرة إنجاب طفل، بينما أنا كنت مركزاً على مهنتي، فوقعت بيننا مشادات لا متناهية. كان لديها عشاق آخرون، أما زواجنا فكان ميتاً تقريباً. تلك الإجازة كانت بمثابة محاولة أخيرة تقوم بها سابين لإنقاذ زواجنا».

صمت لوك، وبدت تعابير وجهه غامضة، أما إميلي فارتعدت حين تذكرت بقية القصة التي روتها لها روبين.

- لكن سابين كانت حاملاً.

غمغمت إميلي بذلك، فأومأ لوك: «نعم، لكنني أشك في أن الطفل كان لي، وهو على الأرجح سبب إخفائها للأمر عني. كنا على بعد أميال عن العناية الطبية اللازمة، ولم يكن هنالك ما بوسعي أن أفعله. انتهى الأمر بسرعة، أما أنا فشعرت بالعجز. كشف تقرير ما بعد الوفاة

أن سابين كانت قد عانت سابقاً من حمل خارجي آخر. أنا لم أعرف حتى أنها حامل. بدا الأمر غير قابل للتصديق، أن تموت المرأة نتيجة حملها في القرن الحادي والعشرين. أحسست بذنب كبير وأقسمت أنني لن أعرض أية امرأة لخطورة مماثلة».

أشرق الفهم على إميلي، فأغمضت عينيها وقد صدمتها كلماته. قالت: «آه، يا إلهي! لهذا السبب كنت مصراً جداً على عدم رغبتك بإنجاب الأطفال. أليس كذلك؟».

- بدا لي أن القدر يسخر مني. سابين لم تكن قادرة على أن تحمل بسهولة، بالرغم من كل جهودها المبذولة في هذا المجال، أما أنت فحملت بسهولة تامة.

همست إميلي قائلة: «لكنك بدوت غاضباً جداً، فشعرت بأذى كبير. كنت بحاجة إليك، لكنني أدركت أنك لا تريدني ولا تريد الطفل».

- سامحيني يا صغيرتي!

أطلق لوك أنيناً معذباً، أما قلب إميلي فتقلب في مكانه حين لاحظت الألم المرتسم في عيني لوك.

- علمت أنك لم تكوني سعيدة في العيش في لندن. في تلك الفترة حصلت مشاكل في شركتي تطلبت مني أن أنشغل أكثر من العادة، كما أن... حالة روبين لم تتضح إلا حينها. بدت لي فكرة جيدة أن نأخذ إجازة وأن نقوم بشهر عسل مؤجل على جزيرة استوائية، حيث يمكننا أن نكون بمفردنا».

قاطع لوك كلامه بضحكة خشنة، ثم تابع: «قد تعتقدين أنني كنت قد تعلمت درسي من تجربتي في الجزر النائية، لكنني لم أتوقع أن يعيد التاريخ نفسه بهذا الشكل. عندما انهرتِ هناك وهمستِ لي أنك تشكّين بكونك حاملاً، أنا...».

هزّ لوك رأسه وهو يسترجع تلك الذكرى الأليمة. أكمل قائلاً: «... ظننتني سأفقدك في الظروف المريعة نفسها كما فقدت سابين.

شعرت بالرعب، وجُنّ جنوني، لكنني لم أكن غاضباً منك. أنا فقط لمتُ نفسي لأنني خاطرت بحياة المرأة التي تعني لي أكثر مما عنى لي أي شخص آخر».

هل يقصدها هي؟ أحست إميلي بقلبها يغوص بشكل مؤلم في صدرها، بعدما فهمت أن برودة لوك تجاهها خلال فترة حملها، كانت نتيجة خوفه على سلامتها، وليس بسبب نفوره من التغييرات التي طرأت على جسدها، لكن ما زالت هناك أمور لا تفهمها. قالت بحزن: «لو أنك وثقت بي وأمّنتني على أسرارك، لوفرت علينا الكثير من البؤس. لكنك عوضاً عن ذلك تحولت إلى روبين، وصديتني عن معرفة ما يدور. لم أتمكن من فهم تقربك منها، ومع ابتعادنا أكثر فأكثر عن بعضنا، بدا لي أنها عشيقتك».

- يجدر بك أن تعلمي أننا لم نكن قط عشيقين.

بدأ لوك يتكلم بإلحاح، فأومأت إميلي، ثم همست: «أنا أصدقك، لكن الزنى ليس بالضرورة عملاً جسدياً. كنت أراقبكما سوياً، وتعرفت على الرابط الموجود بينكما، فأحسست أنني منبوذة».

ساد الصمت لوك فترة طويلة جداً إلى درجة أنها اعتقدت بأنه نسيها، لكن ما إن حاولت إميلي أن تسحب يدها وتحرّرها، حتى شدّ لوك قبضته عليها. أقر بعبوس: «كنت قد أقسمت أنني لن أتحدث أبداً عن طفولتي، فتلك لم تكن أسعد فترة في حياتي، لكنني لا أريدك أن تظني أبداً من جديد أنني أصدك. والدي كان رجلاً بارداً منعزلاً. لا أتذكر أبداً مناسبة رأيته فيها يبتسم، ولا شعرت أنني اكتسبت رضاه. أما والدتي فكانت صامتة، هادئة، حساسة وفي أغلب الأوقات تعيسة جداً. لطالما ظننت أنني خيبت ظنها بشكل ما».

أقر لوك بذلك بهدوء، فاعتصر قلبها ألماً عليه. تابع لوك: «لعلها ببساطة لم تهتم لأمري بما يكفي ليدفعها إلى الاستمرار بحياتها».

أمسكت إميلي يده بكلتا يديها وهي تحاول أن تريحه. قالت له: «لعلها ظنت في حالتها المشوشة أنك ستكون أفضل من دونها، لكنني

واثقة من أنها أحبتك».

أدركت إميلي أن في داخل رجل الأعمال الحضاري الناجح يكمن صبي متوحد، فتأوهت لأجله.

غمغم لوك: «ربما، لكن على الأقل بقي عندي إيف. كنا مقربين بشكل خارق، خصوصاً بعد وفاة والدتنا، ومع نمونا في السن استمرت صداقتنا. تشاركنا في كل شيء، وأنا أحسست بالابتهاج عندما وقع في غرام روبين. بدا لي أن زواجاً واحداً على الأقل لدى آل فايلون سوف يبرهن على أنه ناجح. لكن موت إيف كان ضربة مدمرة».

أقر لوك بذلك، فيما تظللت عيناه بالألم، ثم تابع: «تعلقت روبين بي طلباً للدعم، وأنا أفترض أنني ائتمنتها على أسراري مكان أخي، لكنني اعتبرتها صديقة مقربة، لا شيء أكثر».

حدّق لوك إلى إميلي بدقة، كما لو أنه كان يائساً جداً لأن تصدقه.

- إن ترددي بأن أصبح أباً، لم يكن مرده لعدم رغبتي بطفلنا، بل لأنني خشيت أنني قد لا أكون والداً صالحاً.

قال لوك ذلك بثاقل، فاعتصرت إميلي أنامله مطمئنة.

- إنك أب رائع. جان كلود يحبك حباً جماً، تماماً مثلما سيفعل الطفل الآخر.

- خشيت أن تكون تربيتي قد جعلتني غير قادر على أن أحب، أما زواجي بسابين فيبدو أنه برهن ذلك حقاً. كنت قد خسرت إيف، الشخص الوحيد الذي اهتممت لأمره فعلاً، فقررت بأن الحياة قد تكون أقل تعقيداً لو أن مشاعري غير متورطة بالأمر. لكنني الآن أدرك كم كنت أخدع نفسي.

أخبرها لوك بذلك، فيما رقّ صوته.

- أنت اكتشفت بأنك تحب ابنك.

غمغمت إميلي بذلك، ثم قفز قلبها بألم في صدرها عندما رأت التعابير المرتسمة في عينيه. إنه يحاول أن يخبرها شيئاً ما.

- لقد تعرفت إليك.

فجأة قفز واقفاً على قدميه، وبدت تحركاته خرقاء وغير منتظمة، فانقطع الحبل المشدود حول قلبها فجأة. هذا هو لوك، الرجل الذي تحبه أكثر من الحياة نفسها، وهو في عذاب الآن. تذمر لوك قائلاً: «شعرت بالأسى تجاه روبين ووثقت بها كصديقة، لكنني لم أشعر بأي شيء أكثر تجاهها. أملت أنها مع مرور الوقت سوف تتقبل مسألة موت إيف، وبالتالي سيقلّ اعتمادها علي، لكن فاتني أن ألاحظ الإشارات التي تدل على أنها ترغب بالمزيد من علاقتنا. لست أدري ما الذي يمكنني أن أفعله كي أصلح الخراب الذي ألحقته بعلاقتنا والألم الذي سببته لك».

قال لوك ذلك بصوت أبح، ثم تابع: «لكن بالرغم من أنك تكرهينني حتماً، فلا أستطيع أن أدعك ترحلين. أنت وجان كلود سوياً تشكلان حياتي. لا يمكنني أن أدعك ترحلين!».

كان لوك للتو يسير مبتعداً عنها، وحين نادته إميلي باسمه استدار نحوها، فقبض على عمود السرير بقوة. سألته إميلي وهي تشعر باليأس الشديد كي تفهمه: «لماذا أخفيت عني هذا الكم من الأسرار؟ ما اعتبرته أنا قلّة ثقة بي، استغلته روبين، فمنحها كل الذخيرة التي احتاجتها لتفصل بيننا».

- عزيزتي، أنت كنتِ طاهرة جداً... بريئة جداً، وأنا أردت أن أحميك، خصوصاً حين أدركت أنني غير قادر على مقاومة رغبتي الجامحة بأن أجعلك زوجتي. إن زيجات آل فايلون غير معروفة بكونها سعيدة، كما لو أنهم ملعونون. أنا أكره نفسي بسبب ضعفي تجاهك... ما كان يجدر بي أن أتزوجك أبداً، يا ملاكي.

فانسابت الدموع على خدي إميلي.

- لماذا فعلت ذلك إذاً؟

زمجر لوك وتحرك إلى الأمام كما لو أنه أراد أن يحتضنها، ثم غير رأيه وحشر يديه في جيبي سرواله.

- لأنني أحبكِ!

بدا كأن الكلمات تنتزع من حلقه، أما إميلي فانتابها أغرب شعور على الإطلاق. أقر لوك بصوت ينضح بالعاطفة: «لم أكن أريد ذلك. يا إلهي! فأنا أعلم أكثر من أي شخص أن الحب يؤلم. عندما تعرفت إليك ظننتني سأكتفي بعلاقة غرامية موجزة. الجاذبية الكيميائية بيننا بدت لا تقاوم، وعلمتُ أنك أيضاً أحسست بذلك».

أخبرها لوك بذلك فأحست إميلي بوجنتيها تشتعلان. تابع يقول: «أدركت أنك بريئة جداً، وعلى الفور اتضح لي أن ألطف شيء أفعله لصالحنا معاً، هو أن أبتعد».

- لكنك لم تفعل.

غمغمت إميلي بذلك، فيما كان رأسها يدور في دوامة بسبب إقراره المذهل المفاجئ بأنه يحبها. لم تجرؤ على تصديقه، لكنها أيضاً لم تقوَ على نكران المشاعر الصرفة في عينيه.

قال لها لوك بأسى: «لا! كان يجدر بي أن أدرك الخطر الذي أواجهه، لكنني وجدت نفسي غير قادر على هجرك تماماً مثلما لا أستطيع أن أقتلع قلبي. الزواج بدا لي الخيار العقلاني المنطقي الوحيد، لكنني كنت أخدع نفسي بكوني المسيطر على الأمر. غروري دفعني إلى الاعتقاد بأنني أستطيع الحصول عليك وفقاً لشروطي الخاصة، فآخذ ما تعطينه لي، ولا أقدم لك شيئاً».

تذكرت إميلي تجاوبها الجامح مع شغف لوك: «الأوقات الوحيدة التي شعرت فيها أنني قريبة منك هي حين نكون في السرير. تعلقت بحقيقة أنك ترغب بي لأنه لم يكن لدي أي شيء آخر منك، وعندما صرت حاملاً، اعتبرت برودتك تجاهي بمثابة رفض، ولم أقوَ على احتمال ذلك. فأنا أحبك حباً كبيراً».

همست إميلي بذلك، ثم تابعت: «لكنني لم أعرف قط ما شعرت به تجاهي، لذا كنت تعيسة جداً».

سقط لوك على السرير، فرفعها بين ذراعيه وتوسل قائلاً: «إي...مي...لي! لا تبكي يا صغيرتي! لقد أمضيت عمراً بأكمله وأنا

أحاول إخفاء ما يجول في قلبي، لكن ليس بعد الآن. أفضل أن أموت قبل أن أؤذيك. أحبك، يا قلبي! أنت حياتي، وأنا أعشقك».

بادرها لوك بعناق يمتاز بالشغف الرقيق وبالحب الجم، إلى درجة جعلت الكلام غير ضروري.

توسلها لوك قائلاً: «أتغفرين لي؟».

حملت عيناه الكثير من المشاعر والعواطف الرقيقة كالمخمل. تساءلت إميلي حينها، كيف تمكنت أن تتخيله شخصاً بارداً بأي شكل. إنه يحترق لأجلها، وقد تخلّى عن كبريائه المجيد بسبب حاجته لأن يظهر لها المشاعر التي يصعب جداً وصفها بالكلمات.

قالت بنعومة: «ليس هنالك ما أغفره لك. جل ما أردته يوماً هو حبك، ولا شيء آخر يهم».

- لا فكرة لديك كم آلمني أنك على بعد إنشات فقط مني، لكن هوّة من سوء التفاهم تفصلك عني. من الآن فصاعداً لن تكون بيننا أية أسرار يا حبي!

أسرّ لها لوك بذلك وهو يبعد خصلة شعر عن وجهها، وأنفاسه الدافئة تلفح بشرتها.

- أنا أحبك، لوك!

- وأنا أحبك يا ملاكي، أكثر مما تتصورين.

أكد لها لوك ذلك وقد اسودت عيناه. أراد أن يغرقها في علاقة حميمة تشبع توقهما معاً، لكنه تردد، فابتعد عن إميلي للحظة، ثم تذمر قائلاً: «لست واثقاً من أنه يجدر بنا أن نفعل هذا».

انتقلت يده لتداعب معدتها، وقال: «الطفل...».

همست إميلي بنعومة، وقد فهمت أخيراً مخاوفه الدفينة: «سيكون على ما يرام».

ارتعشت لدى رؤيتها للحب الكبير في عيني لوك، وهو يعاملها بعناية استثنائية. بعدئذٍ لم يعد هنالك من وقت للكلام!

- هل أنت واثق من أنك لا تمانع بخصوص الطفل؟

سألته إميلي ذلك عندما استلقيا سعيدين بين ذراعي بعضهما البعض، فلاحظ لوك التردد الخافت في صوتها. سوف يمضي بقية حياته ليؤكد لها حبه، أقسم لوك بذلك بوحشية. لن يعطيها مطلقاً أي سبب لتشك بحبه لها، ولا بحبه لجان كلود ولكل أطفالهم في المستقبل. قال ببساطة: «لم أعلم أبداً أنه يمكنني أن أشعر ببهجة كهذه. أنت، وجان كلود وهذا الصغير... إنكم عالمي كله، وسوف أكون دوماً موجوداً لأجلكم. خصوصاً عندما تديرين مهنة تنتج ملابس الأطفال على مستوى عالمي».

أضاف ذلك بابتسامة، وتابع: «أنا أحبك، عزيزتي!».

لفّت إميلي ذراعيها حول عنقه: «ينتابني شعور بأنني سوف أكون منشغلة بالكامل لفترة من الزمن».

www.elromancia.com
مـــر مـــوريـــة